روايات مصرية للجيب

الكتاب الثامن عشر

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

البعد الخامس

وقصص أخرى

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـد التنـازلى ، نحو القـرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

الغـراب

(قصة قصيرة)

كله من هذا الغراب ..

صدقنى يا سيادة وكيل النيابة .. هذا الغراب وحده هو المسئول ، عن كل ما أصابنى ، وأصاب جارتنا المسكينة ..

خذها منى كلمة .. كل الغربان نذر شؤم ..

أنا أومن بهذا منذ حداثتى ..

أمى علمتنى هذا ..

وكذلك أبى ..

ثم إن الدلائل كلها تشير إلى هذا ..

هل تشك فيما أقول ؟

هل تتصوّر أننى شخص معتوه أو متخلف ؟ ..

حسن .. اسمع القصة من بدايتها ، ثم أصدر حكمك علىّ ..

لقد واجهنا هذا الغراب اللعين بنعيبه الكئيب ، منذ اللحظة الأولىّ ، التى انتقلنا فيها للسكنى فى هذه الشقة الجديدة ..

كنا نرتب أثاثنا فيها ، عندما سمعت نعيبه للمرة الأولى ، فهتفت فى انزعاج :

ـ يا للهول .. نعيب غراب .. إنها شقة شؤم .

ضحكت زوجتى المأفونة ، عندما سمعت منى هذا القول ، وربّتت على كتفى ، قائلة :

ـ دعك من هذا يا رجل .. الشقة جميلة ، وتطلّ على مشهد رائع ، وريحها طيب .. والحقيقة أننا جميعًا نحبها .

ولكننى لم أشاركهم فرحتهم الغبية ..

كنت واثقًا بأنه سيحدث أمر رهيب يومًا ما ، ما دام هذا الغراب قد استقبلنا بنعيبه ..

وجلست أنتظر هذا الأمر ، حتى كان اليوم العاشر ، عندما سمعت ابنى يصرخ ، فصحت فى أمه :

ـ ماذا أصاب الصغير ؟

أجابتنى فى قلق :

ـ يبدو أنه يعاني اضطرابًا معويًا ..

هتفت :

ـ أرأيت ؟!.. ألم أقل لكم ؟!.. هذا الغراب أتى إلينا بالشؤم .

شهقت زوجتى فى ارتياع ، وقالت :

ـ أى شؤم يا رجل .. معاذ الله .. إنه قليل من المغص المعوى ، وسينتهى بعد قليل بإذن الله .

صرخت فيها ، وسببتها ، ولعنتها ، وأكّدت لها للمرة الألف أن نعيب الغراب علامة شؤم ، ولكنها لم تبد اهتمامًا يُذكر ، وحملت الصغير إلى الطبيب ، الذى قلبه يمينًا ويسارًا ، ثم أفتى بأنه يعانى عسر هضم ، لكثرة ما يتناوله من مياه غازية ، ووصف له عقارًا واحدًا ، لم يكد ذلك الشيطان يتناول منه ملعقة واحدة ، حتى اختفى الاضطراب المعوى ، وعاد يملأ البيت صياحًا وصراخًا كالعفريت ..

وعندئذ سخرت منى زوجتى اللعينة .

ولكنى كنت أعلم أنها واهمة ..

كل ما فى الأمر أن الكارثة لم تأت بعد ..

والأدهى يا سيادة وكيل النيابة أننى لم أعد أنعم بطعم النوم ، فذلك الغراب الملعون استأجر غصن الشجرة التى تطلّ عليها شرفة المنزل الرئيسية ، ولا يتوقّف عن النعيب ليلًا ونهارًا ، حتى أكاد أنهار ..

وفى كل يوم أستيقظ على صوته ..

ويا له من استيقاظ !!

تخيّل نفسك تستيقظ كل يوم بصدر منقبض ..

هل يمكن أن يهنأ بالك قط ؟!..

لقد فقدت كل إحساس بمتع الحياة ، وأصبحت الدنيا بالنسبة إلىّ رحلة عذاب ، أترقّب خلالها ذلك الحدث الرهيب ، الذى أومن بأنه آت لا ريب ..

بل وأنتظره ..

خذ مثلًا حادثة السيارة ..

كنتِ عائدًا إلى المنزل ، عندما سمعت فرقعة عجيبة فى المحرّك ، فأوقفت السيارة على جانب الطريق ، وأسرعت أكشف غطاء المحرّك ..

ويا لهول ما رأيت !..

كان المحرّك يحترق ..

يحترق يا سيادة وكيل النيابة ..

وبكل ما أملك من سرعة ، انتزعت اسطوانة إطفاء الحريق ، وغمرت المحرّك بمسحوقها ، وجلست إلى جواره ألهث ، وأكاد أصاب بنوبة قلبية ، وعندما أخبرت زوجتى السخيفة بهذا ، وأشرت إلى غراب الشؤم ، فوجئت بها تضحك قائلة :

ـ فلنحمد الله (سبحانه وتعالى) إذن .. كان من الممكن أن تحترق السيارة كلها ..

واهمة هى زوجتى .. أليس كذلك ؟

إنها لا تمتلك القدرة على رؤية ما هو أبعد من أنفها ..

ليس لديها بُعد النظر ، الذى يمتلكه الحاذقون أمثالى ..

ولكن من يحتمل كل هذا ..

من يحتمل سخافات زوجتى ، ومتاعب الأولاد ، ونعيب الغراب ؟!..

لقد أصابنى الانهيار ..

صدقنى ..

لم أعد أحتمل ..

واليوم ، شعرت أنه لا بد أن تكون هناك وسيلة للخلاص ..

وسيطرت الفكرة على عقلى تمامًا ..

وعندما لمحت بندقية الصيد الصغيرة ، التى يمتلكها ابنى ، اختمرت الفكرة فى رأسى تمامًا ..

وعلى أطراف أصابعى ، أخذت بندقية الصيد ، وحشوتها بطلقة من طلقات ضغط الهواء ، وصوّبتها إلى ذلك الغراب القذر ، وهو ينشد وصلة نعيبه الصباحية ..

وأطلقتها ..

وحدث ما حدث ..

لقد نجا ذلك الغراب الملعون ، وتجاوزته الطلقة لتصيب رأس جارتنا المسكينة ..

أرأيت يا سيادة وكيل النيابة ..

ها هى ذى الكارثة ، التى كنت أنتظرها ..

ألم أقل لك ؟..

لقد كنت على حق منذ البداية ..

هذا الغراب نذير شؤم ، و ...

ولكن ..

لماذا تنظر إلىَّ بهذه النظرة ، وكإننى مجنون أو معتوه ؟!

ألا تؤمن بشؤم الغربان ؟!

★ ★ ★

اختبر معلوماتك

الآن أصبحنا نلتقى مرتين .
مرة على صفحات (كوكتيل ٢٠٠٠) ..
وأخرى على صفحات (زووم) ..
وهكذا أصبحت لديكم فرصة مضاعفة لاختبار معلوماتكم ..
ومعارفكم ..
وثقافتكم ..
وكالمعتاد ، سنحاول إجابة هذه الأسئلة ، لنعرف منها جواب السؤال الأساسى ..
هل أنت مثقف ؟!..

★ ★ ★

١ ـ « عنصر فلزى ، ذو نشاط إشعاعى ، ينتج عن تفتيت الذرة ، وانشطار اليورانيوم ، ومنه صنعت إحدى القنبلتين الذريتين ، اللتين حسمتا الحرب العالمية الثانية ، عندما ألقيتا على اليابان ، وهذا العنصر هو .. » :
□ الماغنسيوم . □ النيون . □ البلوتونيوم .

٢ ـ « أكبر علماء الفلك العرب ، ساعدته أجهزة مرصد القاهرة ، فى أيام الفاطميين ، على حساب ووضع جداول فلكية جديدة ، من أدق ما عرفه علم الفلك ، وأدى بأبحاثه وأرصاده إلى تحسين قيم الثوابت الفلكية ، وهذا العالم هو .. » :
□ ابن يونس . □ ابن منظور . □ ابن سينا .

٣ ـ « مملكة فى شمال أوربا ، وتشغل الجزء الغربى الجبلى ، فى شبه جزيرة اسكندیناوه ، وأهم مدنها (أسلو) ، و (برجن) ، و (ترونهايم) . وأهم صادراتها الأسماك ، مثل الرنجة والبكلاه ، وسمك القد ، وأسطولها التجارى يعدّ ثالث أسطول فى العالم ، وهذه المملكة هى .. » :
□ إنجلترا . □ النرويج . □ السويد .

٤ ـ « نبات من الفصيلة القرعية ، اسمه العلمى (كيوكيومس ساتيفس) ، موطنه آسيا وأفريقيا ، ويزرع بهما منذ آلاف السنين ، وهو عشب حولى يفترش الأرض ، وله أوراق عريضة طويلة ، والثمرة أسطوانية صغيرة أو كبيرة ، لونها أخضر ، يتحوّل إلى أصفر عند النضج ، وهذا النبات هو .. » :
□ الجرجير . □ الجزر . □ الخيار .

٥ ـ حيوان كيسى ، يستوطن استراليا وتسمانيا ، طرفاه الأماميان صغيران ، والطرفان الخلفيان طويلان قويّان ، يساعدان الحيوان على القفز بسرعة على الأرض ، كما يساعد الذيل العضلى على الاتزان فى أثناء القفز ، وهذا الحيوان هو .. » :
□ الكنغر . □ الأرنب الجبلى . □ النطاط

٦ - « مجموعة كبرى من النجوم والسدم ، تحوى عدة مجموعات شمسية ، يضمها إطار كونى واحد ، ولها مركز وأطراف محدودة ، وهذه المجموعة تسمّى .. » :

□ الكون . □ المجرة . □ الفضاء .

٧ - « هى عمة الرسول (ﷺ) ، ومن فضليات النساء ، فى الإسلام والجاهلية .. قالت الشعر الجيد ، وعرفت برجاحة الرأى ، أسلمت بسبب رجاحة عقلها ، وعمرت طويلًا ، حتى لم تلق ربها (سبحانه وتعالى) ، إلا فى عهد خلافة (عمر ابن الخطاب) ، وهى .. » :

□ أسماء بنت أبى بكر . □ أروى بنت الحارث .

□ أروى بنت عبد المطلب .

٨ - « مجموعة كبيرة من الأجناس بأوربا ، هى الأصل الغالب لشعوب (السويد) و (النرويج) ، و (الدنمارك) ، و (أيسلندا) ، و (ألمانيا) ، و (النمسا) ، و (سويسرا) ، و (شمال إيطاليا) ، و (هولندا) ، و (بلجيكا) ، و (انجلترا) ، و (شمال فرنسا) ، وهذه المجموعة يطلق عليها إسم .. » :

□ الجرمان . □ الرومان . □ البيزنطيين .

٩ - « وسيلة يتم فيها تسخين السائل إلى درجة الغليان ، وتكثيف بخاره على سطح بارد ، ثم تجميعه فى وعاء آخر ، للحصول على سائل نقى ، بحيث يمكن فصل السوائل عن المواد العالقة بها ، أو الذائبة فيها ، ويطلق على هذه الطريقة إسم .. » :

□ التبخير . □ التقطير . □ التكثيف .

١٠- « من آلات الحرب ، يلبسها المقاتل لوقاية رأسه من ضربات السلاح .. تصنع من المعدن القوى ، ولها عدة أشكال ، منها المستدير أو البيضاوى ، ويمكن تطوير أشكالها ، تبعًا للتطور العلمى أو التقنى ، وهذه الآلة هى .. » :

□ المظلة . □ الضمادة . □ الخوذة .

١١- « يطلق عليه اسم (صاحب الثورة الصناعية) ؛ بسبب اختراعه للآلة البخارية ، عام ١٧٦٩ م ، التى أدت إلى ظهور السكك الحديدية ، والسفن البخارية ، والآلات الصناعية الضخمة ، مما كان له أبلغ الأثر ، من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، مع ظهور التكتلات الصناعية والعمالية ، وصاحب هذا الاسم هو .. » :

□ جيمس وات . □ هنرى فورد . □ جورج ايستمان .

١٢- « لعبة أنشأها الدكتور (جيمس نيز سميث) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، عام ١٨٩١م ، وتلعب فى قاعات مغلقة بين فريقين ، يتألف كل منهما من خمسة لاعبين ، وطول الملعب ٢٧ م ، وعرضه ١٥ م ، وتجرى المباراة من شوطين ، مدة كل منهما عشرون دقيقة لعبًا ، ولا يتم احتساب الوقت بدل الضائع ، وهذه اللعبة هى .. » :

□ كرة القدم . □ كرة السلة . □ الكرة الطائرة .

١٣- « مملكة قديمة بشمال ووسط (أسبانيا) ، اسمها بالأسبانية (كستلا) ، وتنقسم إلى منطقتين ، واحدة قديمة فى الشمال ،

وأخرى جديدة فى الجنوب ، وهذه المملكة تشمل معظم هضبة (أسبانيا) الوسطى العالية الجافة ، والأحواض الرئيسية بها .. اشتغل سكانها بالزراعة ورعى الغنم ، واشتهرت بكثرة معدن الزئبق بها ، وهذه المملكة القديمة هى .. » :

□ مدريد . □ كوتسكا . □ قشتالة .

١٤- « أديب تنقَّل فى مدن (خراسان) و (سجستان) ، حتى استقرّ فى (هراة) .. ناظر الخوارزمى فى إنشاد النثر والشعر ، وحكم له بعض الحاضرين ، فحاز شهرة واسعة ، وكان سريع الحفظ والارتجال ، واشتهر بتلاعبه بكتاباته ، وله رسائل لا يوجد بها أى حرف منفصل ، وأخرى تقرأ كسؤال ، ثم تقلب فيأتى الجواب ، وهذا الأديب هو .. » :

□ أبو فراس الحمدانى . □ بديع الزمان الهمذانى .

□ أبو موسى الأشعرى .

١٥- « عنصر فلزى ثقيل ، يعتبر من أقدم المعادن ، التى استخدمها الإنسان ، له لون فضى خفيف ، لو كان حديث القطع ، ويتحوَّل إلى لون داكن ، مع تعرّضه للهواء ، وهو رخو ، قابل للطرق ، ولكن قوة الشد له منخفضة ، وموصّل ضعيف للكهرباء ، وكل مركباته سامة ، تستخدم فى الطلاء ، وصنع الزجاج وتغليظ الزيوت ، وهذا العنصر هو .. » :

□ الرصاص . □ النحاس . □ الفولاذ .

١٦- « طائفة من مفصليات الأرجل ، تشمل مائيات كثيرة ، مثل

الجمبرى ، والاستاكوزا ، والسرطان ، وبرغوث الماء .. تتنفس بالخياشيم ، ولها زوجان من قرون الاستشعار ، وزوائد عديدة مختلفة الأنماط ، وبعضها مفترس ، أو رمى ، أو طفيلى ، وهذه الطائفة هى .. » :

□ المفصليات . □ القشريات . □ البرمائيات .

١٧- « مسطح واسع فى الأرض الجبلية ، له سطح مستو ، يعلو كثيرًا فوق سطح البحر ، ومن الأراضى المجاورة ، والواقعة على أحد جوانبه على الأقل ، ويختلف نوعه حسب عوامل تكوينه ، ومنه الأنواع الالتوائية ، والانكسارية ، والنحاتية ، والبركانية ، ويعرف هذا المسطح باسم .. » :

□ السهل . □ الوادى . □ الهضبة .

١٨- من كبار رواة الحديث ، أهدته أمه بعد الهجرة إلى الرسول (ﷺ) ليخدمه ، فلازمه حتى وفاته ، واشترك فى معظم الغزوات والفتوح ، وعمّر طويلًا ، حتى مات بالبصرة ، وروى الكثير من الأحاديث ، ولكن أبا حنيفة لم يأخذ عنه الكثير ، وأشهر كتبه (الموطأ) ، وهذا الإمام هو .. » :

□ أنس بن مالك . □ أبو حنيفة . □ الشافعى .

١٩- « نبات معمر ، من الفصيلة السعدية ، إسمه العلمى (سيبروس اسكولنتوس) ، وهو يزرع منذ القدم ، فى الأماكن الحارة والمعتدلة ، وبخاصة (أسبانيا) و (مصر) و (الجزائر) .. جذوره عرضية ليفية ، وأوراقه طويلة ، وثماره فى صفين ،

ويصنع منه شراب شعبى فى أسبانيا ، كما تؤكل ثماره المجففة فى (مصر) ، وهذا النبات هو .. ، :

□ الزيتون . □ العنب . □ حب العزيز

٢٠- ، مدينة فى الجنوب الشرقى من ولاية (ميتشجان) الأمريكية ، بين بحيرتى (سانت كلير) و (أيرى) ، اشتهرت ببناء المركبات ووسائل النقل ، ثم أصبحت المركز العالمى لصناعة السيارات ، وامتازت بحركة النقل الهائلة ، القائمة فيها ، وأصبحت من أكبر المدن الصناعية المعروفة ، وهذه المدينة هى .. ، :

□ ديترويت . □ واشنطون . □ نيويورك .

★ ★ ★

وهنا تنتهى الأسئلة ..

وتحين لحظة الاختبار ..

أرجع إلى الحلول ، فى نهاية الكتاب ، وعندئذ ستعرف جواب سؤالنا التقليدى ..

هل أنت مثقف ؟!..

★ ★ ★

ملخص ما سبق نشره

أسندت القيادة المصرية إلى رجال الصاعقة الأربعة (خالد) ، و (عمرو) ، و (محمد) ، و (حسن) ، مهمة تدمير أوّل محطة للإنذار المبكر ، فى قلب (سيناء) ، قبل ساعة واحدة من اندلاع حرب أكتوبر ، ولكن المهمة تعرّضت للكثير من المتاعب ، منذ اللحظة الأولى ، فانكشف أمر الهليوكوبتر ، ومات البدوى (حمدان) ، الذى كان من المفروض أن ينتظرهم ، وشعر الإسرائيليون بوجود فريق مصرى وسطهم ، فتحرّكوا فى تحفز وعصبية وشراسة ، وتمكنوا من الإيقاع بالملازم (محمد) ، وحاولوا استجوابه ، فتحمّل الكثير من وسائل تعذيبهم ، ثم انهار ، ولكنه روى لهم قصة احتياطية ، زوّدته بها القيادة كإجراء وقائى .. وفى الوقت نفسه ، نجح زملاؤه فى الحصول على (جيب) إسرائيلية لتنفيذ المهمة ، واعترضت (راوية) ابنة (حمدان) طريق السيارة ، التى كانت تنقل (محمد) إلى سجنه ، ونجحت مع زملائه فى إنقاذه ، وعادت معهم إلى منزلها ، لإخفاء (الجيب) ، ولم تكد تصل ، حتى كانت فى انتظارها مفاجآت مروّعة بحق .

الفصل العاشر

الجمعة : ٩ رمضان ١٣٩٣ هـ ـ ٥ أكتوبر ١٩٧٣ م :
التاسعة والربع صباحًا .

★ ★ ★

شعر الملازم (محمد) بسائل لزج ينسكب فى فمه ، فأشاح بوجهه مقاومًا ، وهو يتمتم :

ـ لا .. أنا صائم .

ولكن السائل سال إلى حلقه ، ووجد نفسه يبتلعه مرغمًا ، ففتح عينيه فى صعوبة ، وحدّق فى وجه العجوز ، التى تسند رأسه إلى ركبتيها ، وتسقيه ذلك المشروب المر المذاق ، وغمغم :

ـ من أنت ؟.. أين أنا ؟

أتاه من خلفه صوت (خالد) ، وهو يقول :

ـ أنت هنا ، فى منزل (عوّاد) ، خال (راوية) .. وهذه جدتها (آمنة) .

تطلّع إليه (محمد) فى حيرة ، واعتدل جالسًا ، وأدار عينيه فى البيت البدوى البسيط ، الذى يحيط به ، قبل أن يقول فى حيرة :

ـ ومن أتى بى إلى هنا ؟.. ولماذا ؟

ربّتت العجوز عليه برفق ، وهى تقول فى حنان :

ـ اشرب يا ولدى .. هذا سيقويك ، ويساعد جروحك على أن تلتئم .

أشار إليها (خالد) بالصمت ، وهو يجيب سؤال (محمد) ، قائلًا :

ـ كلنا أتينا إلى هنا .. لم يعد منزل (حمدان) آمنًا .

سأله (محمد) ، وهو يستعيد نشاطه فى بطء :

ـ لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

صمت (خالد) لحظة ، ثم قال فى أسى :

ـ لقد قتلوا أم (راوية) وشقيقتها (هادية) .

هتف (محمد) فى انزعاج :

ـ الإسرائيليون ؟!

أومأ (خالد) برأسه إيجابًا ، وقال :

قتلوهما وعثروا على جهاز اللاسلكى ، وهم يبحثون عن (راوية) الآن ، وعنا بالتبعية .

كان (محمد) يشعر بصداع شديد ، والعجوز تلخ فى حنان :

ـ اشرب يا ولدى .. سيفيدك هذا .. صدقنى .

تناوله منها لإرضائها ، وارتشف رشفة منه فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـ ما هذا بالضبط يا أماه ؟

أجابته فى عاطفة رقيقة ، تفيض بالأمومة :

ـ دواء لأوجاعك يا ولدى .

كان المشروب مرًا للغاية ، فابتسم (محمد) وقال :

ـ أى طبيب وصفه ؟

بدا عليها الاستنكار ، وهى تقول :

ـ وما حاجتنا للأطباء .. البدو يداوون أنفسهم منذ الأزل ، بما يحيط بهم من نباتات وأعشاب .

قال محاولًا تهدئتها :

ـ بالطبع يا أماه .. إنه دواء رائع .

وارتشف رشفة أخرى منه ، ثم أعاده إليها ، فقالت حانية :

ـ بالشفاء والعافية .

ابتسم لها ، ثم التفت إلى (خالد) ، وسأله :

ـ وكيف حال (راوية) الآن ؟

هزّ (خالد) رأسه لحظة فى صمت ، وقال فى إعجاب واضح :

ـ إنها فتاة عظيمة .

ثم استطرد بسرعة ، وقد اكتسب صوته رنة حازمة خاصة :

ـ لقد تعقدت الأمور ، ولست أدرى ماذا سنفعل ، حتى تحين لحظة الصفر .

أجابه صوت بدوى أجش :

ـ تبقون هنا على الرحب والسعة .

استدار (محمد) يتطلع إلى (عوّاد) ، خال (راوية) ، الذى بدا له متين البنيان ، على الرغم من تحوله ، فى حين التفت إليه (خالد) ، وقال :

ـ ليس لدينا مانع فى هذا الشأن ، ولكن ألا تعتقد أن الإسرائيليين سيقومون بحملة واسعة للتفتيش ، والبحث عنا ، بعد أن استعدنا (محمد) منهم ؟

مطّ (عوّاد) شفتيه فى ازدراء ، وهو يقول :

ـ يا لهؤلاء الأوغاد .. إنهم سيفعلون حتمًا ، ولكن هذا سينطبق على كل نقطة يقطنها البدو فى (سيناء) ، فما الفارق بين وجودكم هنا ، أو فى أى مكان آخر ؟!.. إننا هنا سنفديكم بأرواحنا ، لو حاولوا المساس بكم .

وضع (خالد) يده على كتفه ، وقال :

ـ أهل للقول يا (عوّاد) ، ولكن المهمة التى أتينا من أجلها ، لها الأولوية المطلقة ، وينبغى أن نعمل على إنجاحها بأية وسيلة .

سأله (عوّاد) :

ـ وما الوسيلة التى تقترحها ؟!

أجابه بسرعة ، وكأنما أعدّ الجواب مسبقًا :

ـ منطقة غير مأهولة .

لم يستوعب (محمد) فى البداية ما يعنيه (خالد) ، ولكن (عوّاد) فهم على الفور ، فعقد حاجبيه الكثين ، وقال :

ـ هذه مخاطرة كبيرة ، فكلمة غير مأهولة هنا تعنى أنها بالغة الخطورة ، ولا تصلح لحياة البشر .

أجابه (خالد) :

ـ ولهذا السبب بالذات لن يجول بخاطر الإسرائيليين أننا نختبئ فيها .

هتف (محمد) :

ـ فكرة رائعة .

وقالت العجوز فى سرعة ، تتناقض كثيرًا مع هيكلها شبه المتداعى :

ـ ما رأيكم فى العبّ الشرقى ؟

قال (عوّاد) فى انزعاج :

ـ لا .. لا يمكنهم أن يذهبوا هناك يا أمّاه .

سأله (محمد) فى اهتمام :

ـ وما هذا العبّ الشرقى بالضبط ؟

أجابه (عوّاد) :

ـ إنه مصطلح نستخدمه منذ طفولتنا ، لوصف أطلال قديمة ، خلف التل الشرقى .. وهى منطقة مخيفة ، تسبح فوق بحر من الرمال الناعمة ، وتنتشر فيها الثعابين والعقارب ، على نحو شديد الخطورة .

قالت العجوز فى حيوية :

ـ والإسرائيليون لا يذهبون إلى هناك قط .

تبادل (محمد) و (خالد) نظرة سريعة ، اتخذا خلالها قرارهما ، وقال (خالد) فى حزم :

ـ فليكن يا (عوّاد) .. سنذهب إلى العبّ الشرقى .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اندفع (حسن) داخل الخيمة ، وقال فى توتر شديد :

ـ دورية إسرائيلية تقترب من هنا .

اعتدل (خالد) بسرعة ، وهبّ (محمد) واقفًا ، وهو يقول :

ـ أين سلاحى ؟

ولكن (عوّاد) قال فى حزم :

ـ لا تشتبكوا معهم .. اتركوهم لنا ، وأسرعوا أنتم إلى العبّ الشرقى .. هناك ستحجبكم عنهم الصحراء ، حتى تحين ساعة الصفر .

سأله (خالد) :

ـ ومن يقودنا إليها ؟

أجابه فى حزم وسرعة :

ـ (راوية) .. إنها تعرفها منذ طفولتها .

أسرع (محمد) و (خالد) يغادران المنزل ، وقفزا مع (عمرو) و (حسن) داخل سيارة (الجيب) الإسرائيلية ، وجميعهم يرتدون الثياب البدوية ، وقال (عوّاد) لابنة شقيقته (راوية) ، التى احتلت مقعد القيادة :

ـ قوديهم عبر الدروب الجنوبية ، ودورى حول بئر (سليمان) .

أومأت برأسها إيجابًا ، وانطلقت بالسيارة على الفور ، فى حين وقف (عوّاد) وأولاده أمام منزلهم ، ينتظرون الدورية الإسرائيلية ..

ولكن الأمور لم تكن تسير على النسق الذى يرغبون فيه ..

ففى واحدة من سيارات الدورية الإسرائيلية الثلاث ، كان أحد الإسرائيليين يضع على عينيه منظاره المقرّب ، وهو يهتف فى لهفة :

ـ ها هى ذى .. السيارة المسروقة يقودها بعض البدو .

صاح قائد الدورية :

ـ انطلقوا خلفهم يا رجال .. سنستعيد سيارتنا على جثثهم ..

وبدأت مطاردة جديدة ، فى قلب (سيناء) ..

★ ★ ★

أمسك قائد العمليات الخاصة ذقنه بسبّابته وإبهامه ، وهو يطالع خريطة ضخمة لصحراء (سيناء) ، موضوعة فوق منضدة كبيرة ، وأشار أحد معاونيه إلى نقطة فوقها ، وهو يقول :

ـ إنهم هنا الآن .. فى منزل (عوّاد) .

قال قائد العمليات فى اهتمام :

ـ متى تلقيتم الاتصال ؟

أجابه مساعده :

ـ منذ ساعة واحدة .. اتصل بنا رجلنا (صالح) ، عبر جهاز الإرسال السرى ، الذى يخفيه أسفل منزله ..

صمت قائد العمليات بعض الوقت ، قبل أن يغمغم :

ـ أكاد أشعر بالندم ، على أننا أرسلناهم مبكّرًا هكذا .

قال أحد مساعديه ، مشيرًا إلى نقطة أخرى على الخريطة :

ـ ولكنهم على مقربةٍ من الهدف بالفعل ، ويمكنهم الاختباء فى أى مكان ، حتى تحين اللحظة المطلوبة .

مطّ شفتيه ، قائلًا :

ـ لست أعتقد هذا .. لقد اشتعل فتيل الشك ، فى أعماق الإسرائيليين ، ولديهم الآن أكثر من مبرّر ، لرفع حالة الطوارئ فى

قلب (سيناء) .. الهليوكوبتر التى انفجرت ، والسيارة (الجيب) المسروقة ، وفرار (محمد) .. لو أننى فى موضعهم ، لأقسمت إنه هناك أمر ما يدبّر فى الجوار .

قال مساعده :

ـ حتى هذا الاحتمال لم يكن بعيدًا يا سيِّدى ، عندما خططنا للعملية .. صحيح أنهم سيدركون حتمية وجود شىء ما ، ولكن تفكيرهم سينحصر فى عمليات حرب الاستنزاف المحدودة ، ولن يقفز أبدًا إلى أنها عملية تمهيدية ، لهجوم شامل وشيك .

أومأ القائد برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ أتعشم هذا .

ثم اعتدل ، مستطردًا :

ـ ولكننا سنرسل آخر التطورات إلى السيد رئيس الجمهورية ، ووزير الحربية ، طبقًا للتعليمات ، وسننتظر أوامرهما بشأن استمرار العملية .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى أسف :

ـ أو إلغائها ..

★ ★ ★

« إنهم يتبعوننا .. »

نطقتها (راوية) فى صمود عجيب ، وهى تنطلق بالسيارة ، نحو الأطلال الشرقية ، فقال (عمرو) فى حزم :

ـ دعينى أقود السيارة ، فأنت تقودينها بسرعة بطيئة ، ستجعلنا نصل إلى ذلك العبّ الشرقى بعدهم .

أجابته فى صرامة عنيفة ، لا تتفق مع أنوثتها :

ـ ولو قدتها أنت بسرعة كبيرة ، لن نصل أبدا .

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يهتف :

ـ كيف تتحدثين إلىّ هكذا ؟.. ما من إمرأة تتحدث إلىّ بهذا الأسلوب ؟

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تناهى إلى مسامعهم دوى رصاصات من بعيد ، وهتف (حسن) :

ـ ربّاه .. الشيخ (عوّاد) وأولاده اشتبكوا مع الدورية .

ضغطت (راوية) فرامل السيارة بحركة آلية ، والتفتت مع الجميع إلى حيث منزل خالها (عوّاد) ، ورأوا الرجل وأبناءه ، وقد أخرجوا أسلحتهم من مخابئها ، وراحوا يتبادلون النيران مع الدورية الإسرائيلية ، فهتف (محمد) :

ـ لن يمكنهم التصدّى لهم .. الإسرائيليون يفوقونهم عددًا وخبرة .

وقال (حسن) فى انفعال :

ـ لابد أن نعود لمعاونتهم .

ترقرقت الدموع فى عينيها ، وهى تقول :

ـ لا أظن هذا ممكنًا ، فمهمتكم الأساسية لها الأولوية ، مهما كان الثمن .

قال (عمرو) فى حماس :

ـ ولكننى أرغب فى العودة .. لن نتخلّى عنهم .

وهتف (حسن) :

ـ ما رأيك أيها القائد ؟

استدارت العيون كلها إلى (خالد) ، الذى صار بحكم موقعه صاحب القرار فى هذا الموقف ..

القرار الوحيد .

★ ★ ★

كانت الدورية الإسرائيلية تضمّ أكثر من خمسة عشر رجلًا ، كلهم يحملون المدافع الآلية ، والقنابل ..

والشيخ (عوّاد) له ستة أبناء ، ويمتلك أربعة مدافع آلية وعدة مسدسات ، وقنبلة يدوية واحدة ..

ولكنه اتخذ قراره بلا تردّد ..

كان يعلم أن هؤلاء الصقور المصريين الأربعة ، قد أتوا من أجل تنفيذ مهمة بالغة السرية والخطورة ..

وكانت غريزته تؤكد له أن هذه المهمة ترتبط ـ بشكل أو بآخر ـ باللحظة التى طال انتظاره لها ..

لحظة اندلاع الحرب الشاملة ..

ولهذا صاح فى أولاده الستة بكل حزم وحسم :

ـ الإسرائيليون يطاردونهم .. دعونا نعترض طريقهم يا أبنائى .

وقفز إلى بقعة من الأرض ، وراح يحفرها فى همة ، ثم أخرج منها صندوقًا يحوى أسلحته ، فوزّعها على أولاده الستة ، واختصّ نفسه بالقنبلة مع مسدسين ، وهو يهتف فى حماس منقطع النظير :

ـ هيًا يا أبنائى .. من أجل (مصر) ..

وكانت مفاجأة حقيقية للدورية الإسرائيلية ..

لقد كانت تطارد الهاربين فى الشرق ، فأتاها الهجوم من الشمال ..

وبقنبلته الوحيدة ، نسف (عوّاد) سيّارة القيادة ، ثم راح يطلق نيران مسدسه على من تبقّى من ركابها ، فى حين أفرغ أولاده الستة رصاصات مدافعهم الآلية فى وجوه وصدور رجال الدورية ..

ولكن الإسرائيليين لم يكونوا أقل إتقانًا وقوة ..

لقد بادلوا النيران بالنيران ، وأمطروا (عوّاد) وأولاده رصاصات من مدافعهم أيضًا ، ثم أضافوا إليها قنابلهم اليدوية ، وخبراتهم القتالية ، و ...

ومالت الكفة إليهم ..

لقد فقد (عوّاد) ثلاثة من أبنائه ، فى الهجوم الأوّل ، وأصيب الرابع إصابة بالغة ، مع الدقيقة الثانية ، وأصابته هو نفسه رصاصة فى كتفه ، وثانية فى ساقه ، ولكنه لم يتوقف لحظة عن إطلاق النار ، بعد أن رأى بنفسه سبعة من الإسرائيليين يلقون مصرعهم أمامه ..

وفجأة ، عادت كفة الميزان تميل إليه ..

لقد ظهرت سيارة المصريين ، وهى تندفع إلى ساحة المعركة ، وعلى متنها هؤلاء العمالقة ، الذين اشتركوا فى القتال بغتة ..

وأصبح الإسرائيليون الباقون بين المطرقة و السندان ، والنيران تأتيهم من الشرق والشمال ..

ولكنهم لم يتراجعوا ..

لقد قاتلوا ..

وقاتلوا فى شراسة ..

وسقط (عوّاد) نفسه شهيدًا ، ولحق به واحد من أبنائه ، فى حين راح الإسرائيليون يلقون قنابلهم اليدوية نحو سيارة الصقور ، الذين يجيبون بالمثل ..

ودوت الانفجارات فى كل مكان ، و (عمرو) يهتف :

ـ ربّاه !.. يبدو أننا فتحنا أبواب الجحيم يا رفاق .

صاح (محمد) :

ـ نعم .. وسنرسل كل هؤلاء الإسرائيليين إليه .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سقطت قنبلة يدوية إسرائيلية تحت قدمه ، فصرخ (حسن) :

ـ احترس يا سيادة الملازم .

وقبل أن يتحرّك أحدهم ، كان (حسن) يختطف القنبلة ، ويلقى بها بكل قوته نحو آخر سيارة للإسرائيليين ..

ولكن حركته هذه ، جعلت جسده كله مكشوفًا لنيرانهم ..

ولم يكن هناك بدّ مما حدث ..

لقد شعر بالرصاصات تخترق صدره ، وعنقه ، وذراعيه ، واتسعت عيناه فى ألم ، مع دوى انفجار القنبلة ، التى أطاحت بسيارة الإسرائيليين ، وبكل من تبقّى منهم ..

واصطبغت الدنيا كلها بلون أحمر ، أمام عينى (حسن) ، وهو

يتهاوى فى أرضية السيارة ، واستقبله (محمد) بين ذراعيه ، وهو يهتف :

ـ (حسن) .. تماسك يا (حسن) .

ولكن (حسن) كان يشعر بآلام مبرحة ، فى كل خلية من خلاياه ، مما جعله يتمتم :

ـ سأحاول يا سيادة الملازم .. سأحاول .

قفزت (راوية) من مقعدها وهى تهتف :

ـ إنه يحتاج إلى إسعاف عاجل .

ابتسم (حسن) فى صعوبة ، وغمغم :

ـ هل هزمناهم ؟

أجابه (عمرو) فى انفعال :

ـ نعم يا بطل .. أنت وضعت اللمسة الأخيرة للمعركة .

ارتجفت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ عظيم .. أخبروا أمى بهذا .

هتف (خالد) :

ـ ستخبرها بنفسك بإذن الله يا (حسن) .

تطلّع إليه (حسن) ، وحاول أن يبتسم ، و ...

وانتهى كل شىء فى لحظة واحدة ..

وسالت الدماء الطاهرة على رمال (سيناء) .

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

الجمعة : ٩ رمضان ١٣٩٣ هـ ـ ٥ أكتوبر ١٩٧٣ م :
الثانية والنصف بعد الظهر .

★ ★ ★

ضم (عمرو) ركبتيه إلى صدره ، وهو يستند بظهره إلى جدار الأطلال القديمة ، فى العبّ الشرقى ، وقاوم فى صعوبة تلك الرغبة فى البكاء ، التى تتصارع فى صدره ، وتندفع إلى عينيه فى شراسة ، ولاذ بالصمت التام ، حتى شعر بـ (خالد) يجلس إلى جواره ، وهو يقول فى خفوت :

ـ الأمر لا يحتمل هذا .. إنها ليست المرة الأولى ، التى تفقد فيها زميلًا .

أومأ (عمرو) برأسه موافقًا ، وهمَ بقول شيء ما ، ولكن منعته تلك الغصّة فى حلقه ، فاكتفى بفتح شفتيه وإغلاقهما ، مع همهمة غير ذات معنى ، فرُبت (خالد) على كتفه ، وقال :

ـ الحقيقة أننى أشاركك مشاعرك هذه ، فلقد أحببنا جميعًا (حسن) (رحمه الله) ، ولكن هكذا الحياة .. لقد خرجنا فى مهمة محدودة ، نعلم جيدًا مدى ما يحيط بها من مخاطر ، كما ندرك أهميتها للقيادة والوطن .. وفى مثل هذه المهام ، يحمل المرء عادة روحه على كفه ، ويفعل كل من يشاركونه المثل .. هذا أمر مألوف فى عالمنا .

نجح (عمرو) أخيرًا فى التحدث ، فغمغم فى صعوبة :

ـ أعلم هذا ، ولكننى عاجز عن الاحتمال ، لأوّل مرة فى حياتى .. لقد كنت فظًا فى معاملته ، على الرغم من احترامى له ، وإعجابى به .. كم أتمنى لو أمكننى أن أعتذر له الآن ، على كل ما فعلته به .

قال (خالد) ، وهو يسند ظهره بدوره إلى الجدار :

ـ إنك لم تفعل ما يستحق الاعتذار ، ولكن عقولنا تُجسّم لنا الكثير من الأمور العادية ، فى لحظات الحزن والفرح .

وشرد ببصره لحظات ، قبل أن يستطرد :

ـ ثم من يدرى .. ربما التقينا به بعد ساعات .

كان المعنى الذى يقصده دائمًا واضحًا ، ولكنه أثار دهشة (عمرو) ، فالتفت إليه متسائلًا ، وهمَ بالتعليق على عبارته ، لولا أن ظهرت (راوية) فجأة ، وهى تقول :

ـ ماذا سنفعل بشأن العملية ؟

سألها (خالد) :

ـ ماذا تقصدين ؟

أجابته بلهجة جامدة جافة ، تحمل شيئًا من الخشونة :

ـ أقصد كيف ستواصلون المهمة ، بعد أن فقدنا (حسن) ؟

أجابها فى لهجة جافة ، مشابهة للهجتها :

ـ سبق أن أخبرتك أنه هناك عدد من الخطط البديلة .. سنلغى دور المراقب الخارجى ، فيقود (محمد) السيارة ، ويجلس (عمرو) إلى جواره ، وأبقى أنا فى المقعد الخلفى .. إنها خطة تعتمد على وجود ثلاثة أفراد بدلًا من أربعة .

قالت فى غلظة :

ـ ولماذا لا يكونون أربعة ؟

أجاب فى صرامة :

ـ فكرة اشتراكك فى العملية مرفوضة تمامًا .

قالت فى شراسة عجيبة :

ـ لماذا ؟.. سأرتدى زى سكرتيرة عسكرية إسرائيلية ، ثم إننى أجيد العبرية ، و ...

قاطعها فى حزم :

ـ مستحيل !

أطلّ من عينيها غضب شديد ، وهى تقول :

ـ اسمع يا هذا .. لقد فقدت سبعة من أفراد عائلتى فى ساعات

معدودة ، من أجل هذه العملية ، ومن حقى أن أضع لمستى عليها فى النهاية .

قال (خالد) فى إصرار :

ـ هذه الروح وحدها تكفى لرفض مطلبك تمامًا .. إننا بصدد عملية دقيقة ، بالغة الأهمية والخطورة ، ومن الخطر ، كل الخطر ، خوضها بهدف الثأر الشخصى .

صاحت فى حدة :

ـ سأذهب على الرغم منكم .. لن أبقى وحدى .

انعقد حاجباه فى صرامة مخيفة ، وهو يقول :

لو أنك تصرين على إفساد العملية ، فهذا يعنى أنه لم يعد أمامى سوى حلّ واحد .

ورفع فوهة مسدسه نحوها ، مستطردًا فى عنف :

ـ أن أقتلك .

هتف به (محمد) :

ـ ماذا تقول ؟

واحتقن وجه (راوية) ، وهى تهتف :

ـ إنه يحاول إخافتى .

أجابها (خالد) :

ـ كلّا .. إننى أقصد كل حرف نطقت به .. هذه العملية لا تحتمل العناد والمكابرة ، وفشلها قد يهدر أرواح العشرات ، وربّما المئات ، من طيارينا ومقاتلينا .. وربما يتسبّب فى خسارتنا لأول مواجهة

عادلة ، بيننا وبين الإسرائيليين (*) ، ولن أضحى بها مهما كان الثمن ، وسأقتل كل من يحاول اعتراض طريق نجاحها ، حتى ولو بحسن نية .

كان يتحدّث فى غضب صارم ، حتى أن الخوف سرى فى عروقها بالفعل ، فحدّقت فى وجهه لحظة ، ثم هبّت من مكانها ، وانطلقت تعدو مبتعدة ، واختفت خلف تبة قريبة ، وران صمت تام على الأطلال ، قبل أن يغمغم (محمد) :

ـ كنت شديد القسوة معها .

أجاب (خالد) فى حزم :

ـ لم يكن هناك مفرّ من هذا .

أشار (عمرو) بكفه ، وهو يقول :

ثرى إلى أين ذهبت ؟

أجابه (خالد) فى هدوء :

ـ ستختفى بعض الوقت .

(*) كانت المواجهة المصرية الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨م ، وخسرتها (مصر) بسبب صفقة الأسلحة الفاسدة ، وعدم التناسق العربى ، وفيها احتلت القوات اليهودية (فلسطين) ، وأعلنت قيام دولة (إسرائيل) ، أما المواجهة الثانية فى عام ١٩٥٦م ، وفيها تآزر الانجليز والفرنسيون والإسرائيليون ، بجميع جيوشهم وقواتهم ، أما المواجهة الثالثة ، فأتت عام ١٩٦٧م ، عندما باغتت (إسرائيل) سلاح الطيران المصرى بهجوم شامل ، أدى إلى عجزه وشلّ فاعليته ، مما أدى إلى هزيمة الجيش المصرى ، دون مواجهة فعلية ، بعكس ما حدث عام ١٩٧٣م ، عندما حدثت أوّل مواجهة عادلة ، برزت فيها قوة وشجاعة الجيش المصرى ، الذى حطّم خط (بارليف) ، وعبر قناة (السويس) ، وسيطر على جزء لا بأس به من (سيناء) .

سأله :

ـ لمـاذا ؟!

تبادل (خالد) نظرة سريعة مع (محمد) ، ثم قال فى اقتضاب :

ـ لتبكى .

رفع (عمرو) حاجبيه ، وهو يقول فى دهشة :

ـ تبكى ؟!

كانت تبدو له قوية صلبة ، حتى أنه لم يتصوّرها تبكى أبدًا ..

وفى هذه اللحظة فقط ، وهو ينطق كلمته المندهشة ، شعر أنها أنثى ..

وأنثى فاتنة أيضًا ..

وفجأة أيضًا ، خفق قلبه من أجلها ..

لم يدر لماذا حدث هذا ؟..

ولا كيف ؟..

بل إنه لم يحاول حتى سؤال نفسه عما حدث ..

فقط نهض فى بطء ، وهو يقول :

ـ إنها تحتاج إذن إلى من يشدّ من أزرها .

واتجه فى خطوات سريعة إلى التبة ، ولم يكد يتجاوزها ، حتى رآها هناك ، تستند إلى صخرة كبيرة ، وتدفن وجهها فى ركبتيها المضمومتين ، لتنهمر بينهما دموعها ..

وشعر نحوها بحنان جارف ، جعله يتجه إليها ، ويهمس :

ـ هل تبكين ؟

جفلت لصوته ، ورفعت إليه عينيها الدامعتين فى دهشة وانزعاج ، ثم أسرعت تجفف دموعها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ لماذا أتيت ؟

ابتسم فى رقة لم تعهدها منه ، وهو يقول :

ـ شعرت أنك بحاجة إلى صديق .

قالها وهو يجلس إلى جوارها ، فتطلعت إليه فى دهشة ، ثم ابتعدت قليلًا عنه ، وهى تغمغم :

ـ صديق ؟!.

ابتسم قائلًا :

ـ أيراودك الشك فى هذا ؟

تطلعت إليه لحظة فى حيرة ، ثم أشاحت بوجهها ، مغمغمة :

ـ لم أعد أدرى أى شىء يراودنى بالضبط !

تأملها لحظات ، ثم قال فى خفوت :

ـ أتعلمين أنك فاتنة ؟

التفتت إليه بدهشة بالغة ، ورأى حاجبيها ينعقدان فى شدة ، فارتبك مغمغمًا :

ـ إنها ليست إهانة فى عالمكم .. أليس كذلك ؟

ولكنها انتزعت من حزامها خنجرًا بغتة ، وانقضت عليه ، و ...

وكانت طعنة نجلاء ..

★ ★ ★

عقد (جاكوب ليومى) ، قائد جناح المخابرات الإسرائيلية فى (سيناء) ، حاجبيه ، وهو يراجع كل التقارير ، التى وردت إليه ، عن أحداث اليوم والبارحة ، ثم نهض ، وصبَّ لنفسه كأسًا من الخمر ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ اللعنة !

وتوقف أمام خريطة كبيرة لـ (سيناء) ، وفحصها ببصره أكثر من مرة ، ثم واصل وكأنه يتحدث إلى شخص آخر :

ـ ما تفسير كل هذا ؟.. هليوكوبتر مصرية تضحى بنفسها ، للإيقاع بأخرى إسرائيلية ، ثم تلقى القبض على ملازم (مصرى) فى (سيناء) ، وبعد استجوابه يخاطر البدو بمهاجمة سيارة الأسرى لإنقاذه ، وبعدها تتم سرقة سيارة (جيب) تابعة للجيش ، وتختفى دورية كاملة فى الصحراء .. مرة أخرى اللعنة .. ماذا يحدث بالضبط ؟

ارتشف رشفة من كأسه ، وعاد يتطلع إلى الخريطة ، قبل أن يقول فى حنق :

ـ هذا الفتى المصرى خدعنا .. إنه لم يفه حتى بنصف الحقيقة .

ثم ألقى محتويات الكأس جانبًا ، وهو يستطرد :

ـ فليقطع ذراعى إن لم تكن هناك عملية مصرية كبرى فى الأفق .

واختطف سمَّاعة الهاتف ، وقال فى توتر :

ـ صلنى بوحدة البحث والمراقبة على الفور .

وانتظر لحظات ، حتى سمع صوت محدثه ، على الجانب الآخر ، فقال :

ـ شالوم يا (بن جازار) .. أنا (ليومى) .. (جاكوب ليومى) .. اسمعنى جيدًا .. أريد ثلاث طائرات هليوكوبتر صغيرة ، من طائرات المراقبة .. نعم .. إنها عملية بحث .. قطط مصرية تسللت إلى هنا .. بالتأكيد .. أريدها على الفور .

وأنهى المحادثة ، وهو يقول لنفسه فى صرامة :

ـ اذهبوا حيثما يحلو لكم الآن أيها المصريون .. سنكون لكم بالمرصاد .

وصب كأسًا أخرى :

★ ★ ★

رأى (عمرو) (راوية) تستلّ خنجرها ، وتنقضّ به فى سرعة ، فقفز جانبًا فى خفة ، كما تعلّم فى تدريبات قوات الصاعقة ، ودار حول نفسه ليقبض على معصمها ، ولكن يده توقّفت فى الهواء بغتة ، وهو يحدّق فى خنجرها ، الذى انغرس فى رأس ثعبان كبير ، وهتف :

ـ ما هذا ؟!

انتزعت الخنجر من رأس الثعبان ، وهى تقول :

ـ كان يهمّ بغرز أنيابه فى عنقك .

هتف :

ـ إذن فأنت أنقذت حياتى .

رمقته بنظرة جانبية ، وهى تقول :

ـ هل أحنقك هذا ؟

قال فى دهشة :

ـ على العكس .. إننى أدين لك بالشكر .. لماذا تصوّرت أن هذا سيحنقنى؟

قالت فى ترقّب :

لأننى فتاة .

قلب كفيه ، قائلًا :

ـ وما الفارق ؟!

سألته بسرعة :

ـ لماذا إذن ترفضون انضمامى إليكم فى عمليتكم ؟

بُهت للسؤال ، ثم لم يلبث أن أجاب :

ـ (خالد) هو القائد المسئول ، فى هذا الشأن .

سألته فى اهتمام عجيب :

ـ ولكن ما رأيك أنت ؟!

صمت لحظات ، وهو يتطلّع إليها ، ثم همس فى حنان :

ـ أخشى أن تصابى بسوء .

مرة أخرى حدّقت فى وجهه بدهشة ..

ولكنها فهمت ..

لقد قرأت مشاعره ، فى نظرته وابتسامته ، وتضرج وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت وهى تنهض قائلة :

ـ هيًا بنا .. سنعود إلى الآخرين .

وأسرعت الخطا ، وكأنها تفرّ منه ، ولكنه استوقفها قائلًا :

ـ (راوية) .. أريد أن ..

خفق قلبها فى عنف ، عندما بتر عبارته ، وقالت دون أن تواجهه :

ـ ماذا تريد ؟

صمت لحظات ، وهو يبحث عن كلمات مناسبة ..
كانت المرة الأولى ، التى يقف فيها مثل هذا الموقف العاطفى ، حتى أنه لم يجد ما يقول ..
فقط صمت طويلًا ..
وهى أيضًا صمتت ..
وخفق قلبه فى قوة ..
وارتجف قلبها فى انفعال ..
ولثوان ، لم يحرّك أيهما ساكنًا ، حتى بَدَوا أشبه بتمثالين من الملح ، أو بجزء من الأطلال القديمة المحيطة بهما ..
ثم انتزع (عمرو) نفسه من ارتباكه ، وقال :
ـ (راوية) .. لو كتب لنا العودة من هذه العملية ، على قيد الحياة ، فهل تقبلين أن ...
قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع فجأة أزيز الهليوكوبتر فى السماء .. هليوكوبتر إسرائيلية ، من الطائرات الثلاث ، التى خرجت للبحث عنهم ..
وكان هذا يعنى أن المطاردة قد بدأت ..
المطاردة الإسرائيلية ..

★ ★ ★

[*البقية فى الكتاب القادم*]

مسألة مبدأ

(قصة قصيرة)

خطيبى أيها السادة شاب غير عادى ..
ربما تظنون أنها مبالغة منى ، أو هو حبى الشديد له ، أو انبهارى به ..
ولكنكم واهمون ..
إنها الحقيقة ..
كل الحقيقة ..
خطيبى فعلًا ليس شابًا عاديًا ..
إنه طيب القلب ، سليم الطوية ، شديد الحماس ، صادق القول ، مجتهد ، مثابر ، مهذّب ، لبق ..
ولكن لديه مشكلة واحدة ..
كل شىء فى حياته مسألة مبدأ ..
ربما يدهشكم هذا القول ، أو يبدو لكم هلاميًا مطّاطًا ..

وربَما ابتسمتم فى سخرية ، أو هتفتم فى دهشة . « ولماذا تعتبرينها مشكلة ؟ .. » ..

والشرح فى هذا الأمر يطول ويطول ، وربما لا ينجح أبدًا فى إقناعكم ..

ولهذا سأقصّ عليكم قصة واحدة ..

ثم احكموا بأنفسكم ..

عندما تخرَّجنا معًا من كلية الطب ، منذ عدة أعوام ، كان ترتيب خطيبى الخامس ، وكان سعيدًا للغاية ، يتقبل التهانى بابتسامة واسعة ، وفرحة واضحة ، فهنأته من كل قلبى ، وقلت :

ـ أعتقد أنك ستصبح عمّا قريب أحد أعضاء هيئة التدريس فى الكلية .

وهنا تنحنح فى وقار، وعدّل منظاره الطبى الأنيق فوق أنفه ، وقال :

ـ لا يا عزيزتى .. لست أحب حياة الأبراج العالية .. سأعمل فى مستشفيات الحكومة .

أدهشنى موقفه ، وأفزعنى فى الحقيقة ، فقضيت ساعة كاملة ، فى محاولة لإقناعه بالعدول عن رأيه هذا ، ولكنه أتحفنى بمحاضرة طويلة عن الشعب ، والفقراء ، وحتمية تقديم يد العون لبنى البشر ، حتى أخرسنى تمامًا ، وهو يختم محاضرته قائلًا :

ـ وهذا الموضوع غير قابل للمناقشة .. إنها مسألة مبدأ .

وهكذا ابتلعت لسانى ، ولم أعد لمناقشة الأمر ثانية ، حتى فوجئت به ذات يوم يقول بابتسامة واسعة عذبة :

هل تعلمين ؟.. أستاذ الجراحة معجب للغاية ببراعتى فى هذا المضمار .. لقد طلب منى بنفسه أن أتقدّم للحصول على نيابة الجراحة العامة فى الجامعة .

وبقدر ما أدهشنى تراجعه ، أظهرت فرحتى وسعادتى ، وهنأته على ثقة رئيس القسم به ..

وتقدّم بأوراق ترشيحه بالفعل ..

ورفض رئيس القسم ..

وكانت الصدمة ضخمة بالنسبة لخطيبى ، الذى ثار وهاج وماج ، وأعلن أنه أحق أفراد دفعته بالحصول على نيابة الجراحة العامة ، وأنه لن يتنازل أبدًا عن مستقبله ، فى الانضمام إلى هيئة التدريس !

ولكن رئيس القسم أصرَّ على الرفض ..

ومع حالة الإحباط والانهيار ، التى أصابت خطيبى ، اقترحت عليه أن يتنازل عن نيابة الجراحة العامة ، وأن يقنع بنيابة التخدير أو الأشعة التشخيصية ، ولكنه هتف فى إباء :

ـ مستحيل .. الجراحة العامة وإلا فلا .. إنها مسألة مبدأ .

ولم يمض أسبوع واحد على حوارنا هذا ، وفى آخر يوم من أيام الترشيح لنيابات الجامعة ، تقدّم خطيبى بأوراقه إلى قسم التخدير ..

وحصل على النيابة ..

نيابة التخدير بالطبع ..

وأثبت خطيبى العزيز تفوّقه وبراعته ، فحصل على شهادة (الماجستير) فى فترة قياسية ، وأصبح إخصائيًا فى مجاله ..

ثم حصل على شهادة الدكتوراه ، قبل زملائه بعام كامل ..
وأصبحت أسعد فتاة فى الدنيا كلها ..
ولكن كان ينقصنا أمر هام ..
أن نتزوّج ..

وعندما طرحت الفكرة على استحياء ، انهمك هو فى تفكير عميق ، ثم قال :

ـ هل تعلمين .. لا بد لى من زيادة دخلنا ، قبل أن نقدم على الزواج ، حتى أضمن لك حياة هانئة ، بلا متاعب أو عذاب .

سألته عندئذ فى اهتمام :

ـ ما رأيك فى البحث عن عقد جيّد ، فى واحدة من دول البترول ؟

حدّق فى وجهى بدهشة أقرب إلى الذهول ، وصرخ فى لهجة تحار فى تحديد مغزاها ، ما بين الغضب والاستنكار .

ـ دول البترول ؟!.. مستحيل !

قلت فى حذر :

ـ ولِمَ لا ؟.. ستعمل هناك لعام أو عامين ، ثم نعود إلى هنا ، و ...

قاطعنى فى صرامة :

ـ قلت مستحيل !.. ألا تعلمين ما يطلقونه على دول البترول هذه ؟.. إنهم يسمونها بلاد النفط والمهانة .. هل تعلمين لماذا ؟..

ومرة أخرى ألقى على مسامعى محاضرة طويلة ، استمعت إليها فى صمت ، مكتفية بإيماءات مهذّبة من رأسى ، وأنهاها كعادته بالعبارة التقليدية :

ـ إنها مسألة مبدأ .

وحاول بالفعل أن يزيد من دخله ، بالعمل المتواصل ، والمثابرة ، والكفاح ، والنشاط ، والحماس ..

ثم تعلّم الدرس الأوّل من دروس الحياة ..

إن كل هذا لا يكفى ..

الله (سبحانه وتعالى) وحده يمنح الرزق لمن يشاء من عباده ..

ثم إن تخصصه مرهق ..

إنه لا يستطيع العمل وحده ، ولا بد له من التعامل مع جرّاح متخصّص ..

وهذا يقلقه ..

وبعد شهر واحد من العمل المتواصل ، منذ الصباح الباكر ، وحتى منتصف الليل ، اختفى خطيبى بضعة أيام ، ثم فاجأنى بزيارته ، وهو يقول فى حماس :

ـ لقد قدّمت أوراقى لمكتب التوظيف السعودى .. إنهم يطلبون أطباء تخدير .

هتفت فى سعادة ، دون أن أناقشه فى أمر رفضه السابق :

ـ عظيم .. خطوة ممتازة ..

ثم سألته فى لهفة :

ـ هل ذكروا شيئًا عن الأجر ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال بابتسامة عريضة :

ـ كلَّا .. ولكننى لن أقبل أقل من سبعة آلاف ريال .. إنها مسألة مبدأ ..

ألم أقل لكم : إنه شاب غير عادى ؟!

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قصة كاملة

قطرات العطش

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ـ همسة من الماضى ..

استغرق (اسماعيل) فى النوم ، حتى ساعة متأخرة كعادته ، واستيقظ مع دقات الساعة الثانية ظهرًا ، فتثاءب فى فراشه ، ومرَّر أصابعه فى شعره بتكاسل واضح ، قبل أن يمدّ يده إلى علبة سجائره ، المجاورة للفراش ، فيلتقط منها سيجارة ، ويشعلها بعينين نصف مغمضتين ، ثم ينفث دخانها فى عمق ، قبل حتى أن ينهض ..

وفى خمول ، راح يسترجع ذكريات سهرة البارحة ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عابثة جذلة ، وهو يغمغم :

ـ يا لها من ليلة !

لم تكن السهرة تختلف عن غيرها من السهرات ، التى اعتاد قضاءها خارج شقته الصغيرة ، التى صنع منها مسكنًا ، ومرسمًا ، ومقهى ، وصالة عرض سينمائى ، ولكنه كان ـ كعادته ـ يهوى الاستمتاع بكل لحظة فى حياته ، ويبغض الاستكانة وحياة الهدوء والاستقرار ..

ولهذا السبب بالذات تزوَّج مرتين ..

وفشل فى زيجتيه ..

إنه يكره تلك القيود ، التى يفرضها الزواج على حياة فنان مثله ..

يكره المطالب والمسئوليات والهموم ..

وهو يبذل كل ما بوسعه للفرار منها ..

هكذا هو ..

طائر طليق ، بلا رابط أو مانع ..

منذ حداثته وهو يهوى هذا النمط من الحياة ، ويقاتل فى سبيل الظفر به ..

إنه لا يدرى حتى لماذا تورَّط فى الزواج ؟!..

لماذا جال بخاطره يومًا أن يصنع لنفسه أسرة ، فيها زوجة وأبناء ، لهم مطالب وهموم ومسئوليات ؟!..

لقد كان مجنونًا حتمًا ، عندما فعلها ..

هكذا يقول لنفسه ، كلما تذكَّر أسرته ، التى انعزل عنها ، وتركها تواجه وحدها مسئوليات الحياة بعيدًا عنه ..

وحتى زواجه الثانى ، لم يكن موفقًا ..

صحيح أنه اختار زوجة من طراز خاص ، لا يفرض عليه أى هموم أو مسئوليات أو التزامات ..

ولكنها زوجة ..

وهذا وحده يكفى ليملأ نفسه بالملل ..

وفى هدوء ، راح (اسماعيل) يجترّ سيجارته وذكرياته القريبة ، وتلك الابتسامة العابثة تبدو وكأنها محفورة على وجهه وشفتيه ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين الهاتف ..

لم يكن ذلك أمرًا غير عادى ، فقد اعتاد استقبال عشرات المكالمات الهاتفية فى اليوم الواحد ، قبل أن يترك لجهاز الرد الآلى مهمة استقبال العشرات الأخرى ، ولكنه لم يدر لماذا اختطف السمَّاعة فى لهفة هذه المرة ، وقال :

ـ من المتحدث ؟

ونقلت إليه أسلاك الهاتف صوتا رقيقًا ، أشبه بالهمس ، يقول ..

ـ أنا (روحية) يا (إسماعليل) .

ولسبب ما ، سرت فى جسده قشعريرة قوية ، لدى سماعه الاسم ، على الرغم من أنه لا يذكر قط ، أنه قد التقى فى الآونة الأخيرة ، أو حتى منذ انتقاله من (الاسماعيلية) إلى (القاهرة) ، بأية امرأة تحمل اسم (روحية) ، فتساءل :

ـ (روحية) من ؟

أجابه الصوت الهامس الرقيق ..

ـ (روحية عبد الغنى) .

وفى هذه المرة ، كانت القشعريرة باردة كالثلج ..

وكان القلب يخفق فى عنف ..

(روحية عبد الغنى) ؟!..

يا لها من ذكريات !..

ذكريات ربع قرن مضى ..

ذكريات الصبا والشباب ..

وفى لحظة واحدة ، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة ، كانت ذكرياته تنطلق بعيدًا :

بعيدًا جدًا ..

★ ★ ★

، (إسماعيل) .. ماذا تريد منى بالضبط ؟ » .

ألقت (روحية) هذه العبارة على مسامعه ، وهما يسيران جنبًا

إلى جنب ، وأصابعه تحتضن أصابعها ، وتبثها ولهه وغرامه ، أمام شاطئ القناة ، فى لحظة الغروب ، فالتفت إليها فى ضيق ، وقال :

ـ لماذا تفسدين هذه اللحظة الجميلة ؟

قالت فى إصرار :

ـ أريد أن أعرف حقيقة صلتك بى .

شعر لحظتها بالضجر والملل ، ولكنه أجاب بسرعة :

ـ أنا أحبك .

سألته على الفور :

ـ وماذا بعد ؟

أدهشه السؤال ، وأثار حيرته ، فغمغم وهو يتطلّع إلى وجهها الجميل ، وملامحها الرقيقة الفاتنة :

ـ لا يوجد بعد .. أنا أحبك ، وهذا يكفى .

تملّصت بأصابعها الصغيرة من أصابعه ، وقالت فى غضب :

ـ كلّا .. هذا لا يكفى .

سألها فى حيرة :

ـ ماذا تريدين إذن ؟

تردّدت لحظة ، ثم مالت عليه ، قائلة :

ـ المفروض أن تتقدّم لخطبتى .

حدّق فى وجهها لحظة بدهشة ، وكأنه لم يفهم ما تعنيه ، ثم انفجر فجأة ضاحكًا ، فهتفت هى فى غضب :

ـ ما المضحك فى هذا ؟

قال ، دون أن يتوقّف عن الضحك :

ـ المضحك فى هذا أنك فى السادسة عشرة من عمرك ، وأنا ما زلت طالبًا فى كلية الفنون الجميلة .

قالت فى حدة :

ـ وماذا فى هذا ؟.. ابنة عمى فى مثل عمرى ، وقد تقدّم لخطبتها شاب فى السنة النهائية بكلية الطب ، وهما خطيبان الآن .

قال بسرعة :

ـ بل قولى : هما أحمقان .. لماذا يقيّد الإنسان نفسه بأمر كهذا ، وهو فى ريعان الصبا .

هتفت محنقة :

ـ لأن كل منهما يحب الآخر .

هزّ كتفيه ، وقال فى لا مبالاة :

ـ وماذا فى هذا ؟.. أنت وأنا نحب بعضنا أيضًا ، ولكن هذا ليس مبرّرًا للخطبة .

صاحت غاضبة :

ـ هكذا ؟!.. هذا هو رأيك إذن ؟

أومأ برأسه ، وهو يقول مصطنعًا الوقار :

ـ هذا رأى كل إنسان عاقل .

انعقد حاجباها الجميلان ، وهى تقول :

ـ احتفظ برأيك لنفسك إذن ، واكتف بحبك .

صاح بها ، وهى تبتعد غاضبة :

ـ هل سنلتقى غدًا ؟

صرخت فى ثورة :

ـ لن نلتقى أبدًا .. هل تفهم ؟.. أبدًا ..

★ ★ ★

« (إسماعيل) . هل تسمعنى ؟.. هل تسمعنى يا (اسماعيل) ؟..»

انتزعه صوتها من ذكرياته البعيدة ، فهبّ جالسًا على فراشه ، وهتف بها فى لهفة حقيقية :

ـ من أين تتحدثين يا (روحية) ؟

أجابته فى هدوء عجيب :

ـ من (السويس) .

قال فى سعادة ، أدهشه أنها نابعة من أعماق قلبه :

ـ لقد أوحشتنى كثيرًا .. إننا لم نلتق منذ عشرين عامًا .
أجابته فى بساطة :
ـ بل تسعة عشر عامًا وستة أشهر وثلاثة أيام ـ
وخفق قلبه فى لهفة وسعادة ..
إذن فهى لم تنس هذا قط ..
لم تنس حبها وسعادتها ..
لم تنس حتى لحظة فراقهما ..
وأدهشه أن رقص قلبه طربًا !.
لماذا يشعر بكل هذه السعادة فى أعماقه ، وهو يسمع صوتها ؟!.
أما يزال حبها باقيًا فى قلبه ؟!..
أما زال عشقها كامنًا فى ثنايا عقله ؟!..
أتاه الجواب على الفور بالإيجاب ..
أتاه من عقله ، وقلبه ، وكيانه ، ووجدانه ..
بالتأكيد ما زال يحبها ..
ولم يحب سواها ..
لقد خدع نفسه ، عندما أوهمها بأنه نسيها ..
كيف يمكن هذا ؟..
كيف يمكن للمرء أن ينسى نفسه ، وروحه ، وكيانه ؟!..
لقد كانت (روحية) بالنسبة إليه ، هى كل هذا :
هى نفسه ..
وروحه ..
وكيانه ..

كان يذوب مع ابتسامتها ، ويركع أمام ضحكتها ، وينهار مع دموعها ..
ولكن هل كانت هى أيضًا تحبه ؟!..
إنه لم ينس سعادتها بقربه ، ولا فرحتها بلقائه ، ولا ..
ولا طعنتها له ..
لقد انتقمت منه شر انتقام ، عندما رفض التقدم منها ..
لم تقتله ، أو تضربه ، أو تسبه ..
كل ما فعلته ، هو أن قبلت خطبة شخص آخر ..
ولم يكن بالشخص العادى ..
بل كان أقرب الناس إليه ..
أقربهم على الإطلاق ..

★ ★ ★

استوقفها غاضبًا ، وهى فى طريقها للمدرسة ، وقال فى حدة :
ـ لماذا فعلت هذه ؟
ابتسمت ابتسامة تجمع ما بين الظفر والسخرية ، وهى تقول :
ـ فعلت ماذا ؟
قال فى غضب :
ـ لماذا وافقت على هذه الخطبة ؟
تطلعت إلى دبلة الخطوبة الذهبية ، التى تزين إصبعها ، وقالت فى دلال خبيث :
ـ إنه شخص يحبنى ، ويرغب فى الارتباط بى رسميًا ، فلماذا أرفضه ؟

قال فى حدة :

ـ كان المفروض أن ترفضى هذا الشخص بالذات .

هزّت كتفيها فى استهتار :

ـ ولماذا ؟

هتف :

ـ لأنه أخى .

أطلقت ضحكة عابثة ، وقالت :

ـ وما المانع ؟

ثم استطردت فى لهجة استفزازية :

ـ لقد كان أكثر شجاعة منك ، وأكثر وضوحًا ـ أحبنى ، فتقدم لخطبتى .. هكذا .. بكل بساطة .

قال فى مرارة :

ـ أنت دفعته لحبك .. أتظنين أننى لم ألمح حركاتك ولمزاتك ؟

أجابته فى حنق :

ـ ولماذا لاحظت هذا بالذات ؟.. كنت أظنك عديم الملاحظة .

صاح بها :

ـ ما الذى تعنينه بهذا ؟

هزّت كتفيها مرة أخرى فى استهتار ، وقالت :

ـ فسّرها كما يحلو لك .

وغادرت المكان فى دلال واثق مزهو ، وتركته خلفها يغلى .. وبشـدة ..

★ ★ ★

هتف فجأة :

ـ كان أخى يا (روحية) .

نقلت إليه أسلاك الهاتف حيرتها ، وهى تقول :

ـ أخوك من ؟!

أجابها فى حدة :

ـ أخى (محمود) ـ رحمه الله ـ لقد استخدمته لإذلالى .. خدعتنا معًا .. هو وأنا .

صمتت طويلًا ، ثم قالت :

ـ أما زلت تذكر هذا ؟

قال فى عصبية :

ـ وكيف أنساه ؟!.. لقد جرحت قلبين دون رحمة .

عادت إلى صمتها لحظات أخرى طويلة ، حتى أنه قال :

ـ أما زلت تستمعين ؟

أجابته فى اقتضاب رصين :

ـ نعم .

ثم أضافت فى سرعة :

ـ وأنا أعترف بخطئى هذا .. لقد كنت مجرمة ومستهترة ، عندما فكّرت فى إثارة غيرتك ، عن طريق قبول خطبة أخيك (رحمه الله) .

أدهشه قولها هذا ، وهى التى لم تعترف بخطإٍ فى حياتها قط ، فارتبك وغمغم :

ـ كنا مراهقين حينذاك .

قالت فى هدوء :

ـ ولكن (محمود) كان أكبر سنًا ، وأكثر عقلًا ورصانة ، ولهذا حدث ما حدث .

سألها فى حيرة :

ـ وما الذى حدث ؟

صمتت لحظات ، ثم قالت :

ـ سأخبرك ماذا حدث يا (إسماعيل) .. سأخبرك بالسر الذى أخفيه فى صدرى ، أكثر من عشرين عامًا .

وتحدثت إليه طويلًا ..

★ ★ ★

٢ ـ أخى ..

كانا يجلسان فى ذلك (الكازينو) ، على شاطئ القناة ، عندما سألها (محمود) فجأة ، ودون مقدمات :

ـ منذ متى تحبين (إسماعيل) ؟!

ارتبكت فى شدة ، واضطربت وهى تقول :

ـ من وضع هذه الفكرة السخيفة فى رأسك ؟

ابتسم (محمود) فى هدوء حزين ، وهو يجيبها :

ـ رأسى نفسه .

ثم مال نحوها ، مستطردًا فى أسى :

ـ إننى لست غبيًا يا (روحية) .. ولست غرًا ساذجًا أيضًا .. لقد لاحظت نظراتك إلى (إسماعيل) ، ونظراته إليك ، ولست أحتاج إلى عبقرية (إينشتين) ، لأدرك أن كلًا منكما يحب الآخر .

خفضت عينيها فى استسلام أشبه بالاعتراف ، فتراجع هو فى مقعده ، وتابع :

ـ كل ما أريد أن أعرفه هو : متى بدأ هذا الحب .. قبل أم بعد خطبتنا ؟!

أجابته فى خجل :

ـ قبلها بكثير .

بدا عليه الضيق ، وهو يقول :

ـ لماذا قبلت خطبتى إذن ؟.. بل لماذا ألقيت شباكك حولى ، حتى وقعت فى حبك ؟

ترقرقت فى عينيها دمعة كبيرة ، وهى تقول :

ـ أردت إثارة غيرته .

هتف مستنكرًا :

ـ فقط ؟!

ثم خفض عينيه ، واستغرق فى التفكير لحظات ، قبل أن يقول فى أسى :

ـ لقد وضعتنا جميعًا فى وضع لا نُحسد عليه يا (روحية) ، ولكن لدى وسيلة لحل هذه المشكلة .

سألته فى لهفة :

ـ كيف ؟

أجاب فى حزم :

ـ سنفسخ خطبتنا .

تردَّدت لحظة ، ثم سألته :

ـ أتظن هذا يكفى ؟

أجابها بسرعة :

ـ كلَّا .. ولكن هناك إجراء آخر .

وخفض عينيه لحظة ، ثم عاد يرفعهما إليها ، قائلًا :

ـ سأغادر (الإسماعيلية) نهائيًا .. سأحيا فى (القاهرة) .

شحب وجهها ، وهى تقول :

ـ إلى هذا .. هل اضطرّك موقفى إلى ...؟

قاطعها قبل أن تكمل :

ـ لا .. لا تضعى هذه الفكرة فى رأسك أبدًا .. إنها فكرة قديمة ، تلحّ فى ذهنى منذ زمن ، ولكن هذا الموقف ساعدنى على حسم أمرى بشأنها .

قالت مرتبكة :

ـ هل تريد الهجرة إلى (القاهرة) ؟

ابتسم وقال فى حزن :

ـ لن أجد فرصتى الحقيقية سوى هناك .. أنا أكتب المسرحيات كما تعلمين ، ولن أجد مجالًا لنشرها وانتشارها إلا فى (القاهرة) .

وربَّت على يدها فى حنان ، مضيفًا :

ـ الوداع يا (روحية) .. لن أنساك .. لن أنساك أبدًا .

★ ★ ★

اغرورقت عينا (إسماعيل) بالدموع ، وهو يقول :

ـ إذن فقد كنت ـ دون أن أدرى ـ أحد أسباب رحيل (محمود) (رحمه الله) إلى هنا .. يا لسخرية القدر !

قالت فى خفوت :

ـ ولماذا تشعر بالأسى لهذا ؟.. لقد أصبح واحدًا من أشهر وأعظم كتاب المسرح فى (القاهرة) .

قال بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ ومات فيها أيضًا ؟

أجابته فى خشوع أدهشه :

ـ إنه قدره .. وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

ألقى دهشته جانبًا فى سرعة ، وقال :

ـ أتعلمين أنه لم يخبرنى بحديثكما هذا قط ؟

غمغمت :

ـ أعلم هذا .

تابع وكأنه لم يسمعها :

ـ لقد فسخ خطبتكما ، وقال : إنكما غير متوافقين ، ثم رحل إلى (القاهرة) ، وعاش فيها طيلة عمره ، دون أن يكشف السر .

قالت فى خفوت :

ـ كان رجلًا عظيمًا .

أجابها فى حماس :

ـ إنه مثلى الأعلى .. لقد عشقت رجولته وشهامته وفكره منذ حداثتى ، وهِمت بها فى صباى ، وعبدتها فى شبابى .

قالت :

ـ ولكنك ـ وعلى الرغم من هذا ـ لم تكتسب الكثير منه .. لقد كان هو رب أسرة هادئة مستقرة .

قال فى أسى :

ـ وأنا حاولت أن أصبح كذلك .

قالت فى سرعة :

ـ وفشلت .

تنهّد ، وقال :

ـ لم أحتمل الزواج .

أجابته :

ـ بل لم تحب زوجتيك بالقدر الكافى .

صمت بضع لحظات ، ليهضم عبارتها ، قبل أن يقول :

ـ ربّما كان هذا صحيحًا .

وران عليهما الصمت لحظات أخرى طويلة ، قطعتها هى قائلة :

ـ كنت أتصوّر أننا سنعود لبعضنا ، فور فسخ خطبتى ، ولكن هذا لم يحدث .

قال :

ـ كان ينبغى ألا تتوقعى هذا .

سألته :

ـ لمـاذا ؟

مال إلى الصمت لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ لأن الأمر كان مستحيلًا .. مستحيلًا بالفعل .

وعاد بذاكرته إلى الوراء ..

★ ★ ★

ابتسمت (روحية) فى دلال ، وألقت ضفيرتها السوداء الطويلة أمام صدرها ، وراحت تداعبها بأصابعها ، وهى تقول :

ـ كانت هذه النهاية متوقعة .

سألها (إسماعيل) فى خشونة :

ـ أية نهاية ؟

تجاهلت خشونته ، وهى تقول :

ـ نهاية علاقتى بأخيك (محمود) .. كلانا لم يكن يصلح للآخر ، ومن الطبيعى أن يتمّ فسخ خطبتنا .

تمتم فى عصبية :

ـ كنت أتوقع هذا منذ البداية .

ضحكت فى ثقة ، وقالت :

ـ بل قل ، كنت تتمناه .

صاح بها غاضبًا :

ـ ماذا تقولين يا (روحية) ؟!.. كيف أتمنى أن يحطم قلب أخى هكذا ؟

قالت فى حدة :

ـ لا تخدع نفسك ، لمجرَّد أنك تخشى الاعتراف بغيرتك من شقيقك .. نعم .. كنت تتمنى أن يتم فسخ خطبتنا ، حتى أعود إليك .. قلها ولا تخف .. اعترف بالحقيقة .

صرخ :

ـ هذه ليست حقيقة .. أنت تعرفين كم أحب (محمود) .

قالت فى عناد :

ـ وأنت تعرف كم تحبنى .

صمت لحظات ، وهو يتطلَّع إليها فى توتر ، ثم أشاح بوجهه ، قائلًا :

ـ كان هذا فيما مضى .

هتفت متحدية :

ـ هل تراهن ؟.. إنك مازلت تحبنى ، حتى هذه اللحظة .. كل شىء فيك يشف عن هذا .. نظراتك .. خلجاتك .. حتى محاولات الفرار من نظراتى المباشرة .. أنا أفهمك جيدًا يا (إسماعيل) ، ولا أحد يفهمك مثلى .

صاح فى مرارة :

ـ فليكن .. سأعترف أننى أحبك .. أى فارق يصنعه هذا ؟

تألقت عيناها فى ظفر ، وهى تقول :

ـ فارق ضخم .. على الأقل ، نستطيع أن نواصل قصة حبنا .

هتف بسرعة واستنكار :

ـ مستحيل !

انعقد حاجباها فى غضب ، وقالت :

ـ لماذا مستحيل ؟

بدا الارتباك والحيرة على وجهه لحظات ، ثم قال : .

ـ لأن (محمود) يحبك .

قالت فى حدة :

ـ تقصد كان يحبنى .

أجاب فى مرارة :

ـ بل يحبك .. مازال يحبك .. لقد قرأت هذا فى عينيه .. فى ارتجافة شفتيه ، وهو يخبرنا بفسخ خطبتكما ، فى دمعة حزن ، لمحتها تتسلل من خلف أسوار عينيه ، عندما تصوَّرت أن أحدًا منا لا يراقبها .. إنه يحبك يا (روحية) .

صمتت لحظات مبهوتة ، ثم قالت :

ـ ليس هذا ذنبى .

ابتسم فى سخرية حزينة ، وهو يقول :

ـ ذنب من إذن ؟!

بدأت ثقتها فى نفسها تهتز ، وتوترت كثيرًا ، وهى تقول :

ـ اسمع يا (إسماعيل) .. لا داعى لأن نغرق أنفسنا فى عقدة ذنب لا تنتهى ، ولا طائل منها .. دعنا نواجه الأمور بواقعية وعقلانية .. أنت تحبنى وأنا أحبك ، فلماذا نفترق .

قال فى حزم :

ـ لأن أخى لن يحتمل أن نلتقى .

صاحت فى عصبية :

ـ ألا يمكنك اتخاذ قرار واحد فى حياتك كلها ، دون التفكير فى أخيك ؟

أجابها فى عناد :

ـ كلّا .. لا يمكننى هذا .

ثم استطرد فى حزم :

ـ ثم إننى لن أبقى هنا .. سأرحل إلى (القاهرة) .

اتسعت عيناها لحظة فى ارتياع ، ثم لم يلبث حاجباها أن انعقدا فى شدة ، وهى تقول :

تمامًا مثل أخيك .. أنت لم تعد تمتلك شخصية مستقلّة .. لقد صرت مجرّد ظلّ له .. أنت مجرّد ظل .. هل تفهم ؟.. مجرّد ظل .

تجاهل صيحاتها الغاضبة ، وهو يقول :

ـ الوداع يا (روحية) .. أظن أننا لن نلتقى مرة أخرى .

صرخت ثائرة :

ـ ومن يرغب فى رؤيتك .. هيّا .. ارحل .. ارحل ولا تعُدْ أبدًا .. لا أريد أن أراك ، حتى آخر لحظة فى حياتى .. لا أريد أن أراك .

وانفجرت باكية فى مرارة ، ولكنه لم يتوقف ..

لقد واصل ابتعاده ، ورحل ..

رحل إلى (القاهرة) ..

★ ★ ★

تنهدّت (روحية) فى عمق ، وقالت :

ـ تخلّيت عنى يا (إسماعيل) .. تركتنى فى (الإسماعيلية) ، وذهبت لتحيا إلى جوار شقيقك فى (القاهرة) .

شاركها تنهيدتها ، وقال :

ـ لم تكن أيامًا هينة يا (روحية) .. كانت فترة كفاح مريرة .. عانيت فيها الكثير ، وتعذّبت أكثر ، حتى أمكننى أن أشق طريقى فى عالم النجاح هنا .

قالت فى هدوء :

ـ من المؤكّد أن (محمود) ساعدك كثيرًا .

أجاب وهو يبتسم فى شرود :

ـ بالتأكيد .. ولكن ليس على النحو الذى تتصوّرينه .. لقد كان يكره الوساطات والمحسوبيات ، ولكن كفاحه وحماسه ، أشعلا فى نفسى جذوة النشاط والحماس ، فانطلقت أصنع نفسى بنفسى ، متحديًا كل الصعاب ، ومتجاوزًا كل العقبات .

قالت فى بساطة :

ـ وأنت الآن واحد من المشاهير .

غمغم :

لم يكن ذلك سهلًا .

ثم سألها فى فضول :

ـ ولكن ماذا عنك يا (روحية) ؟.. ماذا فعلت بعد رحيلى ؟

صمتت لحظة ، ثم أجابت :

ـ تعذّبت كثيرًا .. وبكيت أكثر .. كان قلبى يكاد يزحف لرؤيتك ، ولكن كرامتى تجبره على أن يشيح بوجهه عنك .. ثم جاءت لحظة ، انهار فيها كل شىء فى أعماقى ، وقرّرت الانتحار .

هتف مستنكرًا:

ـ الانتحار ؟!.. أنت تفكرين فى الانتحار يا (روحية) ؟

قالت :

ـ نعم ..وكان هذا أيضًا بسببك ، ولقد انتحرت بالفعل .

هتف :

ـ حقًا ؟!

أجابته على الفور :

ـ نعم .. ولكنه كان انتحارًا من نوع آخر .

وصمتت لحظة ، قبل أن تستطرد :

ـ تزوّجت .

وخفق قلبه فى قوة .

★ ★ ★

٣ ـ الزواج مرة أخرى ..

« .. (إسماعيل) تزوّج ؟!.. » .

هتفت (روحية) بالعبارة فى ذهول ، وتركت جسدها يسقط فوق أقرب مقعد إليها ، وتجمّعت فى عينيها دمعة كبيرة ، وهى تردّد :

ـ كيف ؟.. إنه يكره الزواج والارتباط .. كيف فعلها ؟!

مصمصت أمها شفتيها ، وقالت :

ـ كما يفعلها كل الرجال .. ألم أقل لك ألف مرة ؟!.. كل الرجال يتزوجون ، مهما أكّدوا عدم عزمهم على هذا ؟.. الأمر يتوقّف فقط على اللحظة ، التى يلتقون فيها بالمرأة الذكية ، التى تنجح فى الإيقاع بهم ، واقتناصهم فى مصيدة الزواج .

انحدرت الدمعة الكبيرة على وجه (روحية) ، وتجمّعت أخرى أكبر حجمًا فى قلبها ..

كانت تشعر أن زواجه قد طعنها فى الصميم ..

فى أعماق كرامتها ..

إذن فقد كسر قاعدة حياته ..

ولكن مع أخرى ..

لم تكن تتصوّر أو تتوقّع هذا أبدًا ..

صحيح أنها لم تلتق به منذ عامين ، عندما رحل إلى (القاهرة) ، ورفض العودة مرة أخرى إلى مسقط رأسه ، ولكنها ظلت تحتفظ بحبه فى قلبها ..

وكانت تظن أنه يبادلها الشعور ..

وحتى مع يقينها بأنه يرفض فكرة الزواج ، لم تكن تشعر بالحزن أو الإحباط ..

يكفيها أنه لن يكون لسواها ..

ولكنه فعلها ..

« من تزوّج ؟.. »

فوجئت بنفسها تلقى السؤال ، وقبل أن تستنكره ، سمعت أمها تجيب :

ـ زميلة له ، فى كلية الفنون الجميلة .. يبدو أنه حب قديم .

وعادت تمصمص شفتيها ، مستطردة :

ـ فتاة ذكية ، أوقعته فى فخها ، و ...

صاحت (روحية) فى عصبية :

ـ لماذا تتحدثين عن الزواج دائمًا هكذا ؟!.. إنه ليس فخًا أو مصيدة ، تصنعها المرأة لتوقع بها رجلًا فى شباكها .. إنه علاقة عظيمة ، تقوم على المودّة والرحمة .. تتويج لحب جميل بين طرفين ، ليسكن كل منهما إلى الآخر .

قالت الأم ساخرة :

ـ لم نسمع هذا فى شبابنا .. كل ما عرفناه عن الزواج هو أنه ستر للفتاة ، ووقاية لها من الخطأ .

صاحت (روحية) فى مرارة :

ـ فكرة سخيفة ومتخلّفة .. لماذا لا ترجعون إلى ما يقوله الدين عنه ؟

قالت أمها فى صرامة :

ـ ولماذا لا ترجعين أنت إلى ما تقوله كل الأديان ، بشأن معاملة الأبوين ؟

خفضت (روحية) عينيها ، وقالت :

ـ أنا آسفة .. لم أكن أقصد هذا .

تنهَّدت الأم ، وقالت :

ـ أعلم أنك حزينة ، لأن هذا النذل خدعك وأهملك .. ولكنك جميلة الجميلات ، فى (الإسماعيلية) كلها ، وألف من يتمنى الزواج منك .

قالت فى دهشة :

ـ الزواج ؟!

هتفت أمها :

ـ نعم .. الزواج .. الزواج ممن هو أفضل منه ألف مرة .. هل نسيت كيف بذل الدكتور (حسين) جهده لإقناعك بالزواج منه ؟.. والمهندس (عاصم) .. والأستاذ (علوان) المحامى ، و ...

قاطعتها (روحية) :

ـ كفى يا أمى .. أرجوك .

ولكن الأم تابعت :

ـ الدكتور (حسين) بالذات ، ما زال يلحّ فى الأمر .. ما رأيك ؟!.. هل أبلغه بموافقتك ؟!

صمتت (روحية) طويلًا ، وعقلها يمتزج بمشاعرها ، ويصرخ ..

ـ نعم .. ولم لا ؟..

(إسماعيل) لم يعد لها ..

و (حسين) يطلبها فى إلحاح ..

إنها معادلة متوازنة ..

ومنطقية ..

ولم تستغرق أكثر من لحظات لحسم أمرها ..

كانت تشعر أن زواجها سيكون طعنة عكسية ، تردّ بها الكيل لـ (إسماعيل) ..

طعنة تسترد بها كرامتها الذبيحة ..

وفى حزم ، أجابت :

ـ نعم يا أمى .. أخبريه أننى موافقة ..

وتم الزواج ..

★ ★ ★

تنهّد (إسماعيل) فى عمق ، وهو يستعيد ذكريات زواجه الأول ، وقال :

ـ كلانا تسرّع كثيرًا يا (روحية) .. أنا تزوّجت امـرأة لا تفهمنى ، وأنت تزوّجت رجلًا لا يمكن أن يفهمك .

قالت فى هدوء عجيب :

ـ إنه نصيبنا .. كل منا نال ما هو مقدّر له .

قال فى أسف :

ـ ولكننى لم أستطع التعايش قط مع (ثريا) .. طبيعتنا يتعارض بعضها مع البعض .

تمامًا .. صحيح أنها امرأة طيبة القلب ، مخلصة ، ولكنها أبدًا لم تفهمنى .

قالت (روحية) :

ـ ربّما أنت من لم يفهمها .

كاد يعترض فى البداية ، إلا أن عقله درس الأمر إلى حد ما ، وقال فى النهاية :

ـ نعم .. ربّما .

ثم أضاف بسرعة :

ـ ولكننا انفصلنا فى النهاية ، على الرغم من إنجابنا طفل وطفلة .. لم يمكننا الاستمرار معًا ، على الرغم من وجودهما .

خيل إليه أنه يرى ابتسامتها عبر الهاتف ، وهى تقول :

ـ من العسير أن تجد من يحتمل طبيعتك البرية .

ثم تابعت فى صوت يحمل رنة أسى :

ـ أنا أيضًا أسأت التعامل مع زوجى .. كنت أتعامل معه بشخصية

مزدوجة ، كما لو أننى مصابة بانفصام نفسى .. كثيرًا ما أحاول منحه الحب والحنان والرعاية اللازمة ، من الزوجة لزوجها ، ولكننى ما إن أبدأ فى التعامل معه ، حتى يراودنى شعور بأنه السبب فى افتراقنا ، فأغضب فى أعماقى ، وأصنع معه فيها معركة ضخمة ، يدفع هو ثمنها فى عالم الواقع ، دون أن يدرى سببًا لعصبيتى وعنفى وتوترى .. حتى عندما يغمرنى بحبه وحنانه وهداياه ، كنت أقابل كل هذا بالازدراء ، أو السخرية ، أو العنف ..

سألها فى حذر :

ـ وماذا عنكما الآن ؟

طال صمتها هذه المرة ، حتى كاد يتجاوز الدقيقة الكاملة ، قبل أن تقول :

ـ إنه لم يعد هنا .

سألها فى اهتمام :

ـ ماذا تعنين ؟.. هل انفصلتما ؟

جاء صوتها حزينًا ، وهى تقول :

ـ كان انفصالًا من طرف واحد .. لقد مات .

فاجأه القول ، فصمت لحظة بدوره ، ثم غمغم :

ـ يؤسفنى سماع هذا .

قالت بسرعة مدهشة :

ـ الموت حقيقة لا جدال فيها ، على رءوس العباد .

صمت كلاهما هذه المرة ، بعد عبارتها ، ثم قطع هو حبل الصمت ، وهو يقول :

ـ لقد تزوّجت مرة ثانية ، ولكننى أيضًا لم أشعر بالارتياح .

سألته :

ـ هل كانت تشبه (ثريا) ؟

مطّ شفتيه ، وقال :

ـ بل تختلف عنها تمام الاختلاف ، فى كل الأمور ، قلبًا وقالبًا ، ولكننى لست أدرى ، لماذا لم أحتمل الحياة معها أيضًا .

قالت (روحية) :

ـ طبيعتك لا تميل إلى هذا .

طال صمتها بعد عبارتها ..

وطال ..

وطال ..

كان من الواضح أن كلًا منهما يستعيد ذكريات ومشاعر ، طمرتها السنون ، وأخمدتها الأيام ..

ولكن (إسماعيل) لم يكن يستعيد ذكرياته معها فحسب ..

بل كان يستعيد حياته كلها ..

لم يدر ما الذى فعلته فيه محادثتها الهاتفية بالتحديد ، ولكنه فجأة ، شعر وكأن حياته كلها كانت خاوية ، فارغة ، لا تعنى شيئًا له ، أو للآخرين ..

حياته معها فقط ، هى التى تستحق الذكر ..

وذكرياته معها وحدها ، تستحق التسجيل والاسترجاع ..

فجأة ، شعر أنه لن يستطيع العيش دونها ..

لن يصبح للحياة طعم ، لو رحلت ثانية ..

إن محادثتها الهاتفية هى قطرات الحب ، التى هبطت على صحراء حياته ، فأنبتت فيها مرة أخرى بذور الحنان والسعادة ..

هى قطرات العشق ، التى روت خواءه وأنعشته ..

وبكل اللهفة فى أعماقه ، هتف :

ـ (روحية) .. هل تتزوجيننى ؟

جاوبه صمت مطبق منها ، فتابع فى انفعال :

ـ لقد أضعنا الكثير من العمر يا حبيبتى ، فدعينا لا نفقد ما تبقّى منه .. لا تتردّدى .. لا تخافى .. إنها حياتنا يا (روحية) ، وسنحياها كما كان ينبغى أن نفعل منذ ربع قرن ..

مرة أخرى جاوبه صمتها ، ووجد عينيه تمتلآن بالدموع ، وهو يتابع :

ـ أجيبى يا حبيبتى .. لا تصمتى هكذا .. إننى أحتاج إليك .. صدقينى .. إننى أشعر وكأننى كنت أنتظر محادثتك هذه ، منذ عشرين عامًا يا (روحية) .. هل تسمعيننى ؟

أتاه صوتها رصينًا هادئًا ، وهو تقول :

ـ (إسماعيل) .. إنك لم تسألنى ، لماذا اتصلت بك ، بعد كل هذه السنين ؟

قال فى لهفة :

ـ إنه الحنين يا (روحية) .. أليس كذلك ؟.. الحب القديم يا حبيبتى .

قالت بعد لحظة من الصمت :

ـ بل هى محاولة لتطهير النفس يا (إسماعيل) .

بُهت للعبارة ، وغمغم فى دهشة :

ـ تطهير ماذا ؟!

أجابته فى لهجة تحمل شيئا من الحزم :

ـ تطهير النفس يا (إسماعيل) .. لقد أخبرتك فى البداية أننى أتحدَّث إليك من (السويس) .. إننى أنتظر الباخرة ، التى ستقلّنى مع عدد من الحجاج إلى (المملكة العربية السعودية) ، لأداء فريضة الحج .. إننى أشعر بالندم يا (إسماعيل) .. أشعر أننى المسئولة عن موت زوجى المسكين ، بكل الجفاء والبرود والمقت الذى عاملته به .. أنا المسئولة عن كل الحزن ، الذى ملأ قلبه ، وناء به حمله ، حتى سقط صريعًا .. وأنت تحمل جزءًا من المسئولية معى يا (إسماعيل) .. إننى لا أتهمك .. صدقنى .. لقد غفرت لك ، ولكل من أساء إلىّ فى حياتى كلها ..

وكان علىّ أن أبلغك هذا بنفسى ، حتى أشعر بالتطهر والارتياح .. إلى اللقاء يا (إسماعيل) .. بل وداعًا .. وداعًا إلى الأبد .

لم يقاطعها بحرف واحد ، وهى تلقى عباراتها الأخيرة ، وتجمّدت كل مشاعره فى أعماقه ، وهو يستمع إليها ، حتى أنهت المحادثة ، وتردّد فى أذنه صوت الهاتف الرتيب ..

ولثوان ، ظلّ يستمع إلى الهاتف فى صمت ذاهل ، ثم لم يلبث أن أعاد السمّاعة إلى موضعها فى بطء ، وعيناه تحدقان فيها فى شرود ..

وفجأة ، شعر أن حياته صارت أكثر خواءً ، مما كانت عليه من قبل ..

لقد فقدت كل ما تحمله من أهداف ومعان ..

قطرات الحب ، التى منحته إياها (روحية) ، عبر أسلاك الهاتف ، لم ترو قلبه قط ..

لقد زادته عطشا ..

بل حوّلته إلى صحراء جرداء ..

صحراء قاحلة موحشة مخيفة ..

وفى بطء ، عاد (إسماعيل) إلى فراشه ، ورقد فوقه صامتًا ، وترك ذكرياته تنطلق بعيدًا ، ويمتزج بعضها بالبعض ، ثم تتهاوى فى فراغ رهيب ..

فراغ بلا قرار ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل (دراسة)

أصدقائى الأعزاء ..

دعونا نفتح صفحة جديدة ، فى ملف صداقتنا ..

ودعونا نبدأ تجربة فريدة ، فى عالم الكتابة والإبداع والنشر ..

وهذه التجربة تتركز فى عنوان هذه الدراسة ، الذى قرأتموه فى البداية ..

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل ..

والواقع أن هذا العنوان ليس مجرّد جملة طريفة ، لبدء دراسة طويلة ، ولكنه فكرة طالما راودتنى ، وسيطرت على أفكارى ، وأنا أتابع علاقة المرأة بالرجل ، على كل المستويات ..

- علاقتها به كابنة ، وأخت ، وزوجة ، وحبيبة ، وأم ..

لقد لاحظت دائمًا أن المرأة مشكلة ..

لا أحد يفهمها ..

لا أحد يقدّرها ..

ولا أحد يحترمها ، حتى وإن أثار القول غضب واستنكار الكثيرين ..

الواقع أن المرأة فى مجتمعنا مظلومة ..

ربما تبدو فى بعض الأحيان ظالمة ، قاسية ، عنيفة ..

ولكن كل هذا ليس سوى تعبير عما تعانيه من الظلم ..

والظلم الواقع على المرأة يبدأ منذ طفولتها ..

بل منذ مولدها ..

إنها تُعامل بشكل متعنت ، لمجرّد أنها أنثى ..

ومع الوقت ، تقع المرأة فى العقدة ، التى تحكم حياتها كلها فيما بعد ..

والتى تصنع مشكلتها ..

وهذه العقدة تكمن باختصار فى عبارة واحدة ..

عدم الشعور بالأمان ..

ومن هذا المنطلق أصبحت المرأة مشكلة ..

مشكلة لأنها دائمًا خائفة ..

قلقـة ..

متوتـرة ..

وعندما تفكّر فى الثورة على كل هذه المشاعر ، تتحرّك فى اتجاه متطرّف ، فترفض أنوثتها دون أن تدرى ، لأنها تتصوّر أنها المسئولة عن كل ما تعانيه من شعور بالنقص ، يفرضه عليها المجتمع دون مبرّر ، وخوف كامن فى كل ذرة من أنوثتها الحبيسة ..

ترفض أنوثتها ، حتى لا تضطر لخدمة شقيقها ، بحجة أن الذكور لا ينبغى لهم خدمة أنفسهم ..

وترفضها ، لأنها لو كانت ذكرًا ، لأمكنها الخروج فى أية لحظة ، كما يفعل أخوها ، دون أن تحاصرها نظرات الطمع والشك والغضب والعتاب ..

ولأن الذكورة تمنح الحق فى السيطرة ..
وفى إدارة دفة الأمور ..
وفى القضاء عليها باسم القانون ..
وحتى عندما طالبت المرأة بالمساواة ، لم تكن تسعى للحصول عليها فى الواقع ، فهى أوّل من يدرك أن المساواة موجودة بين كل البشر ، حتى وإن اختلفت الحقوق والواجبات ..
ولكنها فى الواقع كانت تسعى لانتزاع شىء من سلطات الرجل ، وسطوته ، و ..
واستبداده ..
وعندما نجحت فى انتزاع هذه السلطات ، اضطربت ، وارتبكت ، وحاولت أن تحتل موقع الرجل ، ثم طالبته بأن يحتلّ هو أيضًا موقعها ..
واختلّ كل شىء ..
وبدأ الرجل يشكو من المرأة ، دون أن يدرك أنه المسئول الأوّل عما وصلت إليه ..
يقول : إنها مشكلة ، دون أن يعلم أنه هو صنعها ، عندما رفض منذ البداية أن يمنحها حقوقها البسيطة العادلة ..
وهكذا انقلبت كل الموازين ..
ولكننا لن نناقش التفاصيل هذه المرة ، فكل سطر حواه هذا الملخص المختصر ، يحتاج إلى صفحات من الشرح والتفسير والمناقشة ..
إنها مجرّد مقدمة ..
وتمهيد لتلك التجربة الفريدة ، التى سنخوضها معًا بإذن الله ، والتى حدّثتكم عنها فى بداية الموضوع ..

وهذه التجربة هى أنكم أنتم ستكتبون هذه الدراسة لا أنا ..
أو بمعنى أصح .. ستكونون أصحاب الرأى الأوّل فيها ..
لقد شرحت لكم فكرتى ، وعرضتها عليكم بكل وضوح واختصار ، والآن أريد آراءكم ، وأفكاركم ، وتجاربكم ، ومشكلاتكم ، وأسئلتكم ..
أريد منكم مشاركة كاملة ، فى هذه الدراسة الضخمة ..
وكل ما سترسلونه سيجد طريقه للنشر ، من خلال هذه الدراسة ، سواء باسم صاحبه أو صاحبته ، أو بالحروف الرمزية التى يختارها ..
وستكون تجربة جديدة وفريدة بإذن الله ..
وفى النهاية ، سنحصل جميعًا على فائدة جمّة ..
يكفى أننا سنحصل على نتائج حقيقية ، ومنطقية ، وواضحة ، لعلاقة المرأة بالرجل ، والشاب بالفتاة ، وحتى الطفل بالطفلة ..
وستصبح دراستنا هذه ـ بإذن الله ـ مثالًا للتعاون المثمر ، فى عالم الأدب والفكر ، ونموذجًا فريدًا فى دنيا الدراسات الاجتماعية الجادة ..
هيا .. أمسكوا أقلامكم ، وخطوا كل ما يجول بخلدكم ، فى هذا الموضوع ، وأرسلوه إلى العنوان التالى :

المطبعة العربية الحديثة
٨ ، ١٠ ش ٤٧ ـ المنطقة الصناعية ـ العباسية
كوكتيل ٢٠٠٠ ـ آراء جادة

وأنا فى انتظار رسائلكم ..
وأفكاركم ..
وتعاونكم ..
و ...
وإلى لقاء قريب ؟

د . نبيل فاروق

١ ـ الكابوس ..

فجأة ، وجد (جمال) نفسه فى هذا المكان ..

قاعة واسعة كبيرة ، بلا نوافذ أو جدران ، ولها أرضية من مادة عجيبة ، تنعكس عليها أضواء حمراء رهيبة مخيفة ..

وارتجفت أطرافه كلها فى خوف وقلق ..

ما الذى أتى به إلى هنا ؟!..

وكيف ؟!..

حاول عقله أن يبحث عن الجواب ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن الأمور من حوله ، راحت تزداد غموضًا ورهبة ، حتى أنه اضطرب بشدة ، وراح يلقى على نفسه عشرات الأسئلة ، التى بدت ـ بالنسبة له ـ مرتبكة متوترة ، تعكس حالة عدم التركيز ، التى تملأ ذهنه وتحاصره ..

وفى محاولة منه لاستعادة صفاء ذهنه ، حاول (جمال) أن يسترجع كل المعلومات الخاصة به ، وأن يرتبها ويستوعبها جيدًا ..

اسمه (جمال سليمان) ، صحفى علمى بجريدة (الأهرام) ، فى الثلاثين من عمره ، ويقيم وحده مع أمه ، فى منزلهما القديم فى (مصر الجديدة) ، و ..

وفجأة ، تردَّد صوت مخيف ، داخل القاعة الواسعة ، يقول :

ـ (جمال سليمان) .. أنت متهم بالخيانة العظمى .

انتفض جسده كله فى عنف ، وسرت فيه قشعريرة باردة ، وهو يتلفت حوله فى عصبية ، محاولًا البحث عن مصدر الصوت ، ويقول :

ـ الخيانة العظمى ؟!.. يا لها من تهمة !.. وما الذى فعلته لأستحق اتهامًا كهذا ؟!

أجابه الصوت الجهورى الصارم المخيف :

ـ لقد عاونت الأعداء ، على بلوغ هدفهم .

قال فى دهشة :

ـ الأعداء ؟!.. أى أعداء ؟.. ما الذى تعنيه بالضبط ؟

صاح الصوت فى غلظة :

ـ لقد انتهت المحاكمة ، ولا وقت للجدال .. انهض وواجه مصيرك أيها الصحفى .

اتسعت عينا (جمال) فى رعب ، والجدران من حوله تتموَّج وتهتز بشكل مخيف ، ثم راحت أجساد شبه بشرية تنفصل عنها ، وكأنها فقاعات صابون ، تنفصل عن سطح رغوى غزير ، واتجهت هذه الأجساد إليه ، لتحيط به على نحو جعله يتنفس فى صعوبة ، والصوت يتابع :

ـ لقد درست المحكمة حالتك ، وراجعت كل الوثائق وشهادات الشهود ، ثم قرَّرت الحكم بـ ..

قاطعه فجأة رنين متصل ، فتوقفت كل الأجساد شبه البشرية ، وصرخ (جمال) :

ـ ما هذا بالضبط ؟

سمع من بعيد صوتًا يهتف :

ـ (جمال) .. (جمال) ..

وارتفع ذلك الصوت المخيف ، يقول :

ـ لقد صدر الحكم ضدك بـ ..

وهنا شعر (جمال) بأحد الأجساد شبه البشرية خلفه ، وبيد تمتد لتربّت على كتفه ، فصرخ :

ـ لا.. لا ..

ومع صرخته ، تلاشى كل ما حوله ، وغمر الضوء وجهه ، وارتفعت صيحة فزعة :

ـ ما ذا أصابك ؟.. ماذا هناك ؟

هبَّ (جمال) جالسًا على فراشه ، وحدَّق لحظة فى وجه أمه المذعورة ، ثم تنفس الصعداء ، ومرَّر أصابعه فى خصلات شعره المتناثرة ، وحاول أن يبتسم فى عصبية ، وهو يقول :

ـ معذرة يا أمى .. يبدو أنه كابوس آخر .

تطلّعت إليه أمه مشفقة ، وقالت :

ـ لقد نصحتك أكثر من مرة ، بالكف عن تناول الأطعمة الدسمة ، فى وجبة العشاء .

تثاءب فى توتر ، ومدّ يده يوقف رنين المنبه المجاور للفراش ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك على حق فى هذا يا أماه .

قالت بنفس اللهجة ، التى كانت تستخدمها معه فى طفولته :

ـ بل أنا حتمًا على حق .. هذا أمر معروف للجميع .

ابتسم وهو يغادر فراشه ، مغمغمًا :

ـ بالطبع .

انتقت له طاقمًا من الثياب النظيفة ، وهى تقول :

ـ لقد أعددت لك طعام الإفطار ، حتى لا تتأخّر عن عملك .

ضحك وقال :

ـ لا تقلقى نفسك بعملى إلى هذا الحد ، إننى مجرَّد صحفى علمى .

قالت فى حزم :

ـ ونحن فى عصر العلم ، والصحفى العلمى هو أفضل صحفى ، فى الدول المتحضّرة .

قال وهو يصفّف شعره فى عناية :

ـ تسعدنى ثقتك بى يا أمى ، ولكن الواقع هنا يختلف ، فالصحفى السياسى وحده هو الذى يشار إليه بالبنان ، فى عالم الصحافة ، أما الصحفى العلمى أو الأدبى ، فهو مجرَّد وسيلة لملء باقى صفحات الجريدة ، التى لا يصح أن تمتلئ عن آخرها بالأخبار السياسية .

قالت فى إصرار :

ـ هناك صحافة علمية متخصّصة الآن ، وربما تجد مستقبلك فيها .

انحنى يطبع قبلة على وجنتها ، وهو يقول :

ـ إننى أجد مستقبلى فى حبك وحنانك يا أعظم أمهات الدنيا .

أزال ذلك الحوار التقليدى البسيط كل التوتر ، الذى تركه الكابوس فى نفسه ، فتناول طعامه مبتهجًا ، وتبادل بعض الدعابات مع أمه ، ثم ارتدى ثيابه ، واستقلّ السيارة (السيات) الصغيرة ، التى ورثها عن والده الراحل ، وانطلق بها إلى مبنى الجريدة ، ولم يكد يدخل مكتبه ، الذى يشاركه فيه أربعة من الزملاء ، حتى هتف فى مرح :

ـ صباح الخير يا رفاق الكفاح .. هل بدأ رئيس التحرير فى تكديركم ، أم أنه لم يصل بعد ؟

تبادلوا معه تحية مقتضبة ، ثم قالت زميلته (محاسن) :

ـ هذا الأستاذ ينتظرك منذ نصف الساعة .

انتبه (جمال) ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى ذلك الرجل الشاحب الوجه ، الأشيب الفودين ، الأشعث الشعر ، الذى يرتدى منظارًا طبيًا عجيب الشكل ، تنعكس أضواء الحجرة فوقه ببريق عجيب ، مختلف الألوان ، وتبدو الحلة التى يرتديها وكأنه لم يخلعها منذ يومين على الأقل ، فى حين تشف لحيته نصف النامية على أنه لا يولى مظهره أدنى قدر من العناية والاهتمام ..

وعندما أشارت (محاسن) إلى الرجل ، الذى يجلس صامتًا على مقعد خشبى صغير ، مجاور لمكتب (جمال) ، اعتدل بحركة حادة ، وخلع منظاره الطبى ، ووضعه على سطح مكتب (جمال) ، وهو يتطلّع إلى هذا الأخير بلهفة شديدة ، ثم لم يلبث أن هبّ إليه هاتفًا :

ـ أستاذ (جمال) .. حمدًا لله .. من حسن حظى أنك وصلت فى الوقت المناسب .

تطلّع إليه الجميع فى دهشة ، وخاصة (جمال) ، الذى صافحه قائلًا فى ارتباك :

ـ أنا فى خدمتك يا سيِّدى .. ما الذى تطلبه منى بالضبط ؟

قال الرجل فى توتر شديد :

ـ أريد أن أتحدّث إليك .

ثم ألقى نظرة على زملاء مكتب (جمال) ، قبل أن يستطرد :

ـ وحدنا .

ارتبك (جمال) ، وتبادل زملاؤه نظرة صامتة ، قبل أن تنهض (محاسن) ، قائلة :

ـ فليكن .. هيا يا رفاق .. سأدعوكم لتناول بعض المشروبات ، غادروا المكان على الفور ، ومالت (محاسن) على أذن (جمال) ، وهمست قبل أن تنصرف :

ـ خذ الحذر .. مظهر هذا الرجل لا يوحى أبدًا بالثقة .

وافقها (جمال) بإيماءة من رأسه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وتركها تغادر الحجرة ، ثم جلس خلف مكتبه ، وقال فى ارتباك حائر :

ـ أنا رهن إشارتك يا سيِّدى .. ماذا لديك ؟

داعب الرجل منظاره ، الموضوع على سطح مكتب (جمال) ، فى عصبية واضحة ، وهو يجيب بصوت شديد التوتر :

ـ أنا أتابع كل ما تكتبه ، منذ زمن طويل ، وأعتقد أنك الصحفى العلمى الجاد الوحيد ، فى الوقت الحالى .

تطلّع إليه (جمال) لحظة فى حيرة ، ثم قال فى ارتباك :

ـ أشكرك .. ولكننى لا أعتقد أن هذا كل ما أتيت من أجله .

قال الرجل بسرعة :

ـ بالطبع .. لقد أتيت لما هو أكثر خطورة .

ثم مال نحوه ، وأضاف فى عصبية شديدة :

ـ إننى أحاول منع حدوث كارثة .

ازدرد (جمال) لعابه ، وقال :

ـ أتقصد الكوارث الطبيعية ؟.. زلزال آخر مثلًا ؟!

لوّح الرجل بكفه فى حدة ، وهو يقول :

ـ بل أخطر .. أخطر بكثير .

ثم عقد حاجبيه ، مضيفًا :

ـ ربما لا يوحى لك مظهرى بالثقة ، وقد تظننى معتوهًا أو مجنونًا ، ولكننى لست كذلك .. أنا (عامر مراد) .. أستاذ الفيزياء (*) بجامعة (القاهرة) .

حدّق (جمال) فى وجهه بذهول ، قبل أن يهتف :

ـ نعم .. هذا حقيقى .. أنا أعرفك .

الآن فقط ، عرف لماذا بدا له الرجل مألوفًا ، عندما وقع بصره عليه للوهلة الأولى ..

إنه يعرفه جيدًا ..

(*) الفيزياء : علم يعنى بكل ما يحيط بحياتنا اليومية من ظواهر ، مع تطبيقاتها العملية ، مثل الصوت ، والضوء ، والكهرباء ، والمغناطيسية ، والطقس ، وغيرها .

أو بمعنى أدق : يتابع أخباره بمنتهى الاهتمام ..

وفى حماس ، هتف (جمال) :

ـ إنك أشهر من نار على علم يا دكتور (عامر) .. ما من رجل علمى ، أو حتى مهتم بالعلوم ، يمكن أن يجهلك ، أو يجهل أبحاثك العظيمة فى (الفيزياء) ، التى رشحتك يومًا لنيل جائزة (نوبل) (*) .

ثم تراجع متابعًا فى حيرة :

ـ ولكن ما الذى فعل بك هذا ؟ لقد شاهدتك آخر مرة فى مناقشة رسالة الدكتوراه ، التى تقدّم بها أحد تلامذتك ، وكنت أنيقًا كعادتك ، و ...

قاطعه الدكتور (عامر) فى توتر :

ـ لا وقت لهذا .. سأشرح لك كل شىء فيما بعد ، لو لم يظفروا بى قبلها ..

قال (جمال) فى دهشة :

ـ يظفروا بك ؟!.. ماذا تعنى يا دكتور (عامر) ؟.. من هؤلاء بالضبط ؟

ازدرد الرجل لعابه فى توتر ، وقال :

ـ اسمعنى جيدًا .. مادمت تتابع أخبارى ، فلا شك أنك تعلم شيئًا عن أبحاثى الأخيرة .

(*) جائزة (نوبل) : جائزة أوصى بها (ألفرد برنارد نوبل) (١٨٣٣ ـ ١٨٩٦) ، مخترع الديناميت قبل وفاته ، وأوقف عليها مبلغ مليون جنيه ، لكى تمنح من فائدته جوائز سنوية ، لأحسن عمل فى ميادين (الفيزيقا) و (الكيمياء) ، و (الطب) و (الفسيولوجيا) و (الأدب) ، ولأفضل عمل من أجل (السلام) .

قال (جمال) فى حماس :

ـ بالتأكيد .. استخدام الترددات الصوتية متناهية القصر ، لإجراء الاتصالات الفضائية الفائقة البعد ، والتحكم فى مسار الأقمار الصناعية .

قال الدكتور (عامر) فى انفعال :

ـ بالضبط .. هذا ما كنت أسعى إليه ، ولم أتصوَّر لحظتها أن نتائج أبحاثى ستنحرف بالغرض منها إلى هذا الحد ، الذى أضطر فيه للاختباء طيلة يومين كاملين ، خشية أن يقتلنى هؤلاء .

سأله (جمال) فى توتر :

ـ من هؤلاء يا دكتور (عامر) ؟.. أخبرنى .

بدا الرجل مضطربًا فى شدة ، وهو يقول :

ـ لم أكن أقصد هذا .. صدقنى .. أنا رجل مسالم بطبعى ، أكره العنف والقتل والتدمير ، وأكاد أصاب بالجنون ، كلما تصوَّرت أننى المسئول عما حدث ..

سأله (جمال) ، وانفعاله يتصاعد بسرعة :

ـ وما الذى حدث بالضبط ؟

لوَّح الدكتور (عامر) بكفه لحظة ، وكأنه عاجز عن الكلام ، قبل أن يقول بصوت متحشرج مختنق :

ـ تلك الفجوة .

ـ تراجع (جمال) ، وهو يسأله فى حيرة :

ـ أية فجوة ؟

فتح الدكتور (عامر) فمه ، وبدا وكأنه سيلقى الجواب ، عندما انتفض جسده بغتة ، وتحرَّكت يده بحركة عصبية عنيفة ، فارتطمت بمنظاره ، الذى سقط بين قدمى (جمال) ..

واتسعت عينا الدكتور (عامر) فى رعب هائل ، وهو يحدِّق فى نقطة ما من جدار الحجرة ، على نحو جعل (جمال) يلتفت إليها فى سرعة ، و ...

وتجمَّدت أطرافه كلها دفعة واحدة ..

لقد كان يشاهد بعينيه كابوسًا ..

كابوسًا حقيقيًا .

★ ★ ★

٢ ـ الظـل ..

ارتشفت (محاسن) رشفة من قدح الشاى الساخن ، الذى تمسكه بكفيها ، وهى تقول فى حماس :

ـ أراهن أن هذا الرجل يحمل قصة مدهشة .

أجابها أحد زملائها ساخرًا :

ـ بالتأكيد .. قصة هروبه من مستشفى الأمراض العقلية .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حدة :

ـ لو أنه كذلك ، لما اختار (جمال) بالذات لمقابلته ، فـ (جمال) ليس صحفيًا عاديًا .

ابتسم الزملاء فى خبث ، وغمغم أحدهم بابتسامة ماكرة :

ـ حقًا ؟!

هتفت فى صرامة :

ـ نعم .. وليس للسبب الذى يدور فى عقولكم المريضة .. إنه ليس صحفيًا عاديًا ؛ لأنه صحفى متخصص ، يكتب فى باب العلوم فحسب ، ولن يقرأه سوى أصحاب الرأى والفكر ، والـ ..

قبل أن تتم عبارتها ، انفجرت بغتة تلك الصرخة ..

صرخة مدوية رهيبة ، امتزج الرعب فيها بالفزع والهلع والألم ، وهى تهوى مع صاحبها من حالق ، فى تناغم متناقض سريع ..

ثم بدأ صوت الارتطام واضحًا ..

وبقفزة واحدة ، بلغت (محاسن) النافذة المجاورة ، وأطلّت منها إلى ساحة المبنى ، ثم شهقت فى شدة ..

كان ذلك الرجل ، الذى التقى بـ (جمال) مسجى أرضًا ، فى منتصف الساحة ، وحوله بركة من الدماء ، وعدد من رجال الأمن والمارة يهرعون نحوه فى ذعر ..

وتراجعت (محاسن) ، هاتفة :

ـ يا إلهى !!.. (جمال) .

وانطلقت تعدو بأقصى سرعة ، عائدة إلى المكتب ، وخلفها عدد من زملائها ، واقتحم الجميع المكتب فى لهفة ، ثم وقفوا يحدقون فى المشهد أمامهم ..

كانت نافذة الحجرة مكسورة ، وبعض قطع من زجاجها ملقى أرضًا ، فى حين جلس (جمال) خلف مكتبه ، شاحب الوجه ، جاحظ العينين ترتجف أطرافه فى شدة ، وهو يقبض على حافة مكتبه فى استماتة ، وكأنه يخشى أن ينتزعه أحد منه :

وفى لهفة ، اندفعت نحوه ، هاتفة :

ـ (جمال) .. (جمال) .. ماذا حدث ؟

حدّق فى وجهها لحظات ذاهلًا ، ثم أشار إلى الجدار المقابل ، وقال بحروف مرتجفة ، وصوت متحشرج مختنق :

ـ ذلك الظل .

كانت تتوقع أن يشير إلى النافذة المكسورة ، وليس إلى الجدار ، فقالت فى حيرة :

ـ أى ظل ؟

ارتجفت شفتاه لحظة ، وبدا وكأنه عاجز عن النطق ، يمرّ بحالة من الرعب الهائل ، قبل أن يدير عينيه فجأة إلى النافذة المحطّمة ، ويهتف :

ـ أين الدكتور (عامر) ؟

قالت متوترة :

ـ أتقصد ذلك الرجل الـ ....

قاطعها فى حدة مباغتة :

ـ أين هو ؟

تراجعت قائلة فى سرعة .

ـ لقد سقط .. انتحر .

اتسعت عيناه فى هلع شديد ، وهتف :

ـ قتله ذلك الـ ....

وبتر عبارته بغتة ، ثم تلفّت حوله فى ارتياع شديد ، جعل أحد زملائه يقول :

ـ رويدك يا (جمال) .. لقد انتهى الأمر .. اهدأ .

ولكنه ظلّ يتلفّت حوله هلعًا ، وكأنه يتوقّع رؤية شبح فى الحجرة ، فمالت (محاسن) نحوه ، وقالت فى قلق متعاطف :

ـ ماذا أصابك يا (جمال) ؟

حدّق فى وجهها مرة أخرى فى ارتياع ، فخفق قلبها فى عنف ، قلقًا وخوفًا عليه ، فى حين قال أحد زملائه فى إشفاق :

ـ أظنك تحتاج إلى العودة إلى منزلك يا (جمال) ؛ فمن الواضح أن الحادث أصاب أعصابك فى الصميم .

شقّ طبيب المبنى طريقه بين الصفوف ، وقال فى حزم :

ـ لست أظنهم يسمحون له بهذا .. إنه شاهد الحادث الوحيد ، وسيحتاج رجال الأمن إلى استجوابه حتمًا .

ثم صفق بكفيه ، مستطردًا فى حزم :

ـ هيا .. اخلوا الحجرة .. هذا الشاب يحتاج إلى الهواء النقى .

تراجع الجميع فى تثاقل ، فى حين أخرج الطبيب من حقيبته محقنًا ، جذب إليه سائلًا رائقًا من قنينة صغيرة ، وهو يستطرد :

ـ وإلى شىء من الهدوء .

وكشف ذراع (جمال) ، الذى سأله فى ذعر :

ـ ما هذا بالضبط ؟

أجابه بابتسامة مشجِّعة :

ـ اطمئن .. إنه عقار مهدئ فحسب .

وغرز إبرة المحقن فى عروقه ، ودفع فيها السائل الرائق ، فسألته (محاسن) ، التى لم تغادر الحجرة مع زملائها :

ـ هل سينام ؟

أجابها الطبيب فى هدوء :

ـ هذا يتوقف على درجة تكيفه مع العقاقير المهدئة .

وسحب المحقن ، وأعاده إلى حقيبته ، وهو يقول :

ـ هيا يا بطل .. ارقد قليلًا ، وسينتهى كل شىء بسلام .

وغادر الحجرة بدوره ، وترك (جمال) مع (محاسن) ، التى سألته فى لهفة تفوح برائحة القلق :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

تطلَّع إليها (جمال) لحظة ، ثم هزَّ رأسه فى عنف ، وأخفى وجهه بين كفيه ، قائلًا :

ـ لن يصدقنى أحد .

هتفت بسرعة :

ـ أنا أصدقك .

رفع عينين محمرتين إليها ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!.

ثم عاد يهزّ رأسه ، مستطردًا :

ـ لا .. لا .. مستحيل !.. لا أحد يمكنه أن يصدّق هذا .

سألته فى لهفة أكثر ، وقلق أكبر :

ـ لماذا يا (جمال) ؟.. ما الذى حدث بالضبط ؟

حدَّق فى وجهها لحظة ، ثم قال :

ـ الكابوس .. نفس الكابوس الذى هاجمنى صباح اليوم .. لقد رأيته يتحوَّل إلى حقيقة واقعة .. كان الدكتور (عامر) يتحدَّث إلىَّ ، عندما رأيت ظلًا ينفصل عن الحائط ، ويتجه إليه .. ظلًا شبه بشرى ، شديد الشفافية والليونة ، بدا وكأنه نبت من الجدار بلا مقدمات .. وكان من الواضح أن الدكتور (عامر) يعرف هذا الظل .. أو يدرك معنى تواجده هنا ؛ فقد قفز من مقعده ، وحاول الفرار منه ، وهو يطلق صرخات رعب هائلة ، إلا أن ذلك الظلّ حاصره ، ودفعه نحو النافذة ، ثم .. ثم ..

سألته والدهشة تملأ كيانها كله ، وتفيض فى عروقها وصوتها :

ـ ثم ماذا ؟

ارتجف صوته بشدة ، وهو يجيب :

ـ ثم راح ذلك الظلّ يتجسَّد ، حتى بدا أشبه بجسم بشرى متشح ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، بالسواد ، ويحمل على ظهره جسمًا معدنيًا ، يشبه أسطوانات الأكسجين ، التى يحملها الغوَّاصون ، و ...

ازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يستطرد :

ـ وانقضَّ ذلك الجسم على الدكتور (عامر) ، ودفعه بكل قوته ، فارتطم بالنافذة الزجاجية ، وحطَّمها ، و ... و ...

لم يكن باستطاعته إكمال عبارته ، مع شدة ارتجافته ، فقالت (محاسن) فى اضطراب :

ـ اهدأ يا (جمال) .. اهدأ ..

قال فى توتر شديد :

ـ أنت لا تصدقين هذا .. أليس كذلك ؟

ترددت لحظة ، قبل أن تقول :

ـ أنت مقتنع أنك رأيت ذلك الـ ... الظل .. أليس كذلك ؟

لوَّح بكفيه ، هاتفًا :

ـ بالطبع .. لقد رأيته وهو يخترق الحائط ، ويتجسَّد ، ثم يعود للاختفاء ، ويعبر الحائط ، و ...

قاطعته فى إشفاق :

ـ إنها أوَّل مرة ترى فيها رجلًا ينتحر .. أليس كذلك ؟

حدَّق فى وجهها لحظة ، وقال :

ـ ماذا تعنين ؟

هزَّت كتفيها ، قائلة :

ـ أعنى أن هذا يسبِّب صدمة قوية ، مما يدفع العقل إلى محاولة العثور على بديل ، أو ...

صاح فى وجهها بحدة :

ـ أى هراء هذا ؟.. هل تعتقدين أننى تخيَّلت كل هذا ؟

قالت بسرعة :

ـ أنا واثقة من أنك تؤمن بكل حرف نطقت به ، ولكن الوقائع كلها تشير إلى أن الرجل قد انتحر ، و ...

قاطعها صوت صارم هذه المرة ، يقول :

ـ أخطأت يا آنسة .. هذا الرجل لم ينتحر .

التفتت فى دهشة إلى مصدر الصوت ، مع (جمال) ، ووقع بصرهما على رجل عريض الفك والمنكبين ، يرتدى حلة عادية ، ورباط عنق زاهى الألوان ، ويتابع فى حزم :

ـ ومن خلال خبرة تقدَّر بعشر سنوات ، فى مجال البحث الجنائى ، أكاد أجزم بأننا أمام حالة قتل لا انتحار ، ولن يستغرق حل غموضها وقتًا طويلًا ، لأنه ليس أمامنا سوى متهم واحد .

وأشار بسبَّابته إلى (جمال) ، مستطردًا فى صرامة :

ـ أنت يا أستاذ (جمال) .

وهوى قلب (محاسن) بين قدميها .

★ ★ ★

٣ ـ الاتهـــام ..

لوهلة ، لم يفهم (جمال) الموقف بالضبط ..

وفجأة ، انفجر كل الغضب الكامن فى أعماقه ..

وفى ثورة مباغتة ، صاح فى وجه ذلك القادم :

ـ من أنت بالضبط ؟.. وما هذا القول السخيف ؟

لم تبد ذرة واحدة من الغضب ، فى وجه ذلك القادم ، وهو يجيب فى برود :

ـ أنا العقيد (محمد عبد المنعم) .. من المباحث الجنائية ، قسم جرائم القتل ، وهذا القول لا ينطوى على لمحة واحدة من السخافة ، بل هو استنباط منطقى محض .

ثم أشار إلى النافذة ، مستطردًا :

ـ فالمنتحر لن يقفز عبر نافذة مغلقة ، فيحطّمها فى عنف ، لمجرّد أن يلقى نفسه خارجها .. لماذا لا يفتحها بكل بساطة ، ثم يقفز عبرها ؟

قالت (محاسن) فى اندفاع :

ـ ربما خشى أن يمنعه أحد من الانتحار .

حاول (جمال) أن يعترض ، إلا أنها لكزته فى ذراعه ، فلاذ بالصمت ، وأشاح بوجهه ، فى حين ابتسم العقيد (محمد) فى سخرية ، وقال :

ـ فكرة ذكية يا آنسة ، ولكنها لن تنقذ صديقك ، فما زال فى جعبتى الكثير .

عقدت ساعديها أمام صدرها ، وقالت فى عناد :

ـ مثل ماذا ؟

لوّح بكفه ، قائلًا :

ـ السقوط نفسه .. عندى عشرة شهود على الأقل ، يؤكدون أن الرجل سقط بظهره ، ووضع الجثة نفسه يؤكّد هذا ، فكيف يفعلها وحده ؟.. المنطقى أن أحدهم دفعه فى قوة ، وأسقطه .

ثم التفت إلى (جمال) ، واستطرد فى صرامة :

ـ ولم يكن فى الحجرة سواه ، وسواك يا أستاذ (جمال) .

قال (جمال) فى حدة :

ـ بل كان هناك آخر .

رفع (محمد) حاجبه ، وقال :

ـ من ؟!.. الجميع أكّدوا أن أحدًا لم يدخل هذه الحجرة ، منذ غادرها زملاؤك .

قال (جمال) فى عصبية :

ـ هذا لأنه لم يدخل عبر الباب ، وإنما ..

لكزته (محاسن) مرة أخرى فى عنف ، لتمنعه من الاستطراد ، ولم يغب هذا عن عينى العقيد (محمد) ، الذى ابتسم فى مكر ، قائلًا :

ـ من أين أتى إذن ؟.. عبر الحائط ؟!

صاح (جمال) :

ـ نعم .. عبر الحائط .

لكزته (محاسن) مرة ثالثة ، فى نفس اللحظة التى عقد فيها (محمد) حاجبيه ، وقال فى حدة :

ـ آه .. هل ستلجأ إلى ادعاء الجنون ؟

قالت (محاسن) فى ضيق :

ـ هذا ما كنت أخشاه .

أما (جمال) ، فأجاب فى عصبية شديدة :

ـ لا .. لن أدّعى الجنون ، وكل ما أقوله حقيقى ، وحدث بالفعل .. لقد اخترق شىء ما الجدار ، وهاجم الدكتور (عامر) ، و ...

قاطعته تلك النظرة العجيبة ، التى يحدجه بها العقيد (محمد) ، والتى تحمل مزيجًا من الدهشة والاستنكار والغضب ، مع تلك الكلمة التى هتف بها وكأنه يبصقها :

ـ شىء ؟!

ارتبك (جمال) ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، وهتفت (محاسن) :

ـ إنه لم يقصد هذا .

ولكن (محمد) عقد حاجبيه فى غضب صارم ، وهو يقول :

ـ يقصد أو لا يقصد .. إننى ألقى القبض عليه .

وازداد صوته غضبًا وصرامة ، وهو يضيف :

ـ رسميًا ..

★ ★ ★

تثاءب (جمال) بملء فيه ، وهو يجلس داخل حجرة الاستجواب الصغيرة ، فى قسم الشرطة ، أمام العقيد (محمد) ، الذى فرد قدميه على مقعد أمامه ، وأشعل سيجارته العاشرة ، وهو يقول :

ـ اسمع يا هذا .. لن يصدّق مخلوق واحد قصتك السخيفة هذه .. كلنا نعلم أن قصص الأشباح والعفاريت ما هى إلا أوهام وخرافات ، يردّدها المسنون من أهل الريف ، والمتخلفات من سكان المدن ، ولكن القضاة والمحامين ورجال الشرطة ، لا يملكون إزاءها سوى السخرية .

تثاءب (جمال) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ فليكن .. ولكنها القصة الحقيقية الوحيدة .

ضرب (محمد) سطح المنضدة الصغيرة ، التى تفصله عن (جمال) ، بقبضته فى عنف ، وهو يقول فى غضب :

ـ كف عن هذا التثاؤب ، وعن التظاهر بالعته والجنون .

قال (جمال) فى تهالك :

ـ قلت لك ألف مرة : لست أتظاهر بأى شىء ، ثم إننى لا أستطيع الكفّ عن التثاؤب ، لأن طبيب المؤسسة حقننى بعقار مهدئ .

هبّ (محمد) واقفًا ، وهو يقول :

ـ حسن أيها الصحفى الذكى .. تثاءب كما يحلو لك ، ولكنك لن تنعم بنوم هادئ إلا فى زنزانتك ، بعد أن يدينك القضاء ،

واندفع يغادر الحجرة فى غضب ، وصفق الباب خلفه فى عنف ، فمطّ (جمال) شفتيه ، وتمتم :

ـ لقد كانت (محاسن) على حق .. من العسير أن يصدّقنى أحد .

وتثاءب قبل أن يستطرد :

ـ حتى أنا أكاد لا أصدّق نفسى .

تثاقل جفناه ، وبدأت الصور تهتز أمامه ، وهو يقاوم بشدة رغبته فى النوم ..

وفجأة ، اتسعت عيناه عن آخرهما ..

لقد لمح ذلك الشىء فى ركن حجرة الاستجواب ..

ذلك الظلّ ..

فى البداية ، خُيِّل إليه أنه جزء من الصورة المهتزّة ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى ذلك الكيان الشفاف ، الذى انفصل عن الجدار ، واتجه نحوه ..

وقفز (جمال) من مقعده ، وتراجع صارخا :

ـ لا .. لا .. ابتعد .

ولكن ذلك الظل اقترب منه ، واخترق المنضدة فى يسر مذهل ، وكأنها غير موجودة ، ثم حاصره فى ركن الحجرة ..

وفى رعب ، التصق (جمال) بالجدار ، وراح يصرخ :

ـ ماذا تريد منى ؟.. ابتعد .. ابتعد .

وفى بطء ، راح ذلك الظلّ يتجسّد ، ويتخذ المظهر البشرى ، وقد اتشح كله بالسواد ، واختفى موضع العينين منه خلف منظار داكن ، و ...

وكان يصوّب إلى (جمال) مسدسًا ..

مجرَّد مسدس عادى ، حدَّق فيه (جمال) فى ذهول ، وهو يقول :

ـ هل .. هل ستقتلنى ؟

ثم قفز جانبًا بحركة غريزية ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الرصاصة ، وسمعها ترتطم بالجدار خلفه ، فانقضَّ على مهاجمه ، وهو يصرخ :

ـ لماذا تريد قتلى ؟

وبحركة عنيفة ، لطم ذلك الشخص على وجهه ، وأدهشه أن ارتدَّ خصمه بحركة طبيعية ، وكأنه مجرَّد بشرى عادى ولكن هذا شجَّعه على أن يلكمه مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، أصابت اللكمة المنظار الداكن ..

وأطاحت به ..

وتجمَّد (جمال) فى مكانه ..

لقد رأى خلف المنظار زوجًا من الأعين البشرية ، تحدقان فيه بمقت وغضب ..

ثم انحنى ذلك الشخص ، ليلتقط المنظار الداكن ..

ولم يحاول (جمال) منعه ..

لم يدر لماذا وقف ساكنًا جامدًا هكذا ، وهو يحدِّق فى الشخص الغامض ، الذى التقط المنظار ، ووضعه على عينيه ، وعاد يصوِّب إليه المسدس ، و ...

وهنا فتح العقيد (محمد) باب الحجرة ، وهتف فى دهشة .

ـ ما هذا بالضبط ؟

استدار إليه ذلك الشخص فى حركة حادة ، ثم ضغط شيئًا ما فى حزامه ، وراح جسده يتلاشى ، ويتحوَّل إلى ظلّ شفاف ..

واتسعت عينا (محمد) فى ذهول ، وهو يتابع ذلك الظل شبه البشرى ، الذى اتجه فى هدوء إلى الجدار ، ثم غاص فيه ، واختفى تمامًا .

ولثوان ، ران على الحجرة الصغيرة صمت رهيب ، ثم صرخ (محمد) ، وهو يندفع خارجها :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟

كان يتوقَّع رؤية ذلك الظلّ فى الخارج ، ولكنه رأى الممر خاليًا ، إلا من جنود الحراسة ، فأمسك أحدهم فى عنف ، وصرخ فى وجهه :

ـ أين ذلك الشىء ؟!

حدَّق الجندى فى وجهه لحظة ، قبل أن يقول فى حيرة وارتباك :

ـ أى شىء ؟!

كاد (محمد) يخبره فى البداية ، ثم لم يلبث أن أدرك عدم جدوى هذا ، فقال فى حدة :

ـ لا عليك .. لا تقلق نفسك بهذا .

ثم عاد إلى حجرة الاستجواب ، وأغلقها خلفه ، ووقف يتطلع إلى (جمال) لحظة فى حيرة ، قبل أن يتمتم :

ـ لقد سمعت الرصاصة .. وهذا ما أتى بى إلى هنا .

غمغم (جمال) :

ـ كم يسعدنى أنك فعلت .

أشار (محمد) إلى الجدار ، وبدا متوترًا مرتبكًا ، وهو يقول :

ـ أهو .. أهو نفس الشيء .

أومأ (جمال) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فزفر (محمد) فى حرارة ، وجذب مقعده ، وألقى نفسه فوقه ، وقال :

ـ لست أصدّق هذا .. لو ظللت تقسم لى ألف مرة ، أن هذا قد حدث ، لما صدّقتك أبدًا ، لولا أن رأيت ذلك الشيء بنفسى .

سأله (جمال) فى لهفة :

ـ وما الذى رأيته بالضبط ؟

هزّ (محمد) كتفيه ، وقال :

ـ غوّاص .. أو رجل يشبه الغوّاصين .. أو .. أى شيء يشبه رجلًا يرتدى زى الغوّاصين .

وابتسم فى ارتباك ، مستطردًا :

ـ هذا أفضل ما يمكننى أن أصفه به .

جلس (جمال) بدوره ، وقال :

ـ المهم ما هو بالضبط ؟

رفع (محمد) سبّابته ، وهو يقول :

ـ ولماذا قتل الدكتور (عامر مراد) ؟

قال (جمال) فى سرعة :

ـ أنا أعرف جواب هذا الجزء الأخير .

اعتدل (محمد) فى اهتمام ، قائلًا :

ـ حقًـا ؟!

أجابه (جمال) :

ـ أعتقد هذا .. لقد قتل هذا الشيء الدكتور (عامر) ، ليمنعه من كشف سر وجوده .

أشعل (محمد) سيجارته ، وهو يسأله :

ـ أليس لديك تفسير أفضل ؟

قال (جمال) ، فى لهجة تحمل شيئًا من الحماس :

ـ بلى .. لقد كان الدكتور (عامر) يجرى تجاربه ، حول الترددات الصوتية المتناهية القصر ، الخاصة بالاتصالات الفضائية ، عندما تسبّب فى إحضار ذلك الشيء .

بدت الحيرة على وجه (محمد) ، وهو يقول :

ـ وكيف أحضره ؟

لوّح (جمال) بكفيه وهو يقول :

ـ ربما عبر فجوة فضائية ، أو بأسلوب الانتقال الآنى ، أو ...

أوقفه (محمد) بإشارة من يده ، وقال :

ـ مهلًا .. مهلًا .. لست أفهم شيئًا من كل هذا ، فدراستى كانت فى مجملها أدبية بحتة ، ويصعب علىّ فهم هذه المصطلحات العلمية ، ولكننى أثق بأنك تفهم الكثير ، ولكن ..

واعتدل فى مقعده ، مستطردًا :

ـ ولكنك تحتاج إلى معاونة قوية ، لكشف حقيقة الأمر .

وأشار إلى صدره ، مضيفًا ، مضيفًا فى حزم :

ـ وأنا سأمنحك المعاونة اللازمة .

مدّ (جمال) يده يصافحه ، وهو يقول فى سعادة :

ـ سيادة العقيد .. إننى أعتذر عن كل ما ...

ولكن ملامح (محمد) انقلبت فجأة ، وارتسم عليها غضب شديد ، وهو ينتزع مسدسه ، ويصوّبه إلى (جمال) ، صائحًا :

ـ أيها الوغد .

وقبل أن يفهم (جمال) ما يحدث ، أو يلقى سؤالًا واحدًا ، ضغط (محمد) الزناد ، و ...

وأطلق النار .

★ ★ ★

٤ ـ فى كل مكان ..

انتفض جسد (جمال) فى عنف ، عندما أطلق العقيد (محمد) مسدسه نحوه ، ثم اتسعت عيناه فى دهشة ، عندما تجاوزته الرصاصة ، وارتطمت بجدار الحجرة ، ورأى (محمد) ينقضّ عليه فى شراسة ، فتراجع هاتفًا :

ـ ما ... ماذا فعلت ؟

ولكن (محمد) أزاحه جانبًا فى عنف ، وهو يواصل انقضاضته على الجدار ، هاتفًا :

ـ كنت تتجسّس علينا .. أليس كذلك ؟

استدار (جمال) فى سرعة ، وعادت عيناه تتسعان فى شدة ، حتى كادتا تجحظان هذه المرة ..

لقد كان (محمد) يتصارع مع ذلك الظلّ ..

كان يلكمه فى عنف وقوة ، دون أن يبدى الظلّ الشفاف حراكًا ، وقبضةُ (محمد) تعبره وتتجاوزه ، كما لو كان يلكم الهواء ..

وفى غضب ، صرخ العقيد (محمد) :

ـ ما أنت بالضبط ؟.. أى عبث شيطانى أنجبك ؟

قالها ووقف يلهث ، وهو يضمّ قبضته ، ويواجه ذلك الظلّ شبه البشرى ، الذى بقى صامتًا ساكنًا ، وكأنما الأمر لا يعنيه ..

ثم أقدم على خطوة عجيبة ..

عجيبة ومخيفة فى آن واحد ..

لقد تحرك نحو (محمد) ، و ...

واخترقه ..

وأمام عينى (جمال) الذاهلتين المذعورتين ، غاص ذلك الظلّ فى جسد (محمد) ، الذى اتسعت عيناه فى ارتياع ، وارتجف بشدة ، قبل أن يعبره الظلّ ، ويواصل طريقه نحو الحائط ، ثم يختفى فيه ، كما لو أنه قد امتزج به ، وتلاشت ذراتهما معًا ..

وفى اللحظة نفسها ، اقتحم ضابط شرطة الحجرة ، وهو يشهر مسدسه ، هاتفًا :

ـ ماذا يحدث هنا ؟

ثم انقضّ على (جمال) ، ودفعه أمامه فى عنف ، حتى ألصقه بالجدار ، وألصق فوهة مسدسه بصدغه ، وهو يستطرد فى قسوة :

ـ ماذا فعلت ؟

هتف (جمال) :

ـ لم أفعل شيئًا .

قال الضابط فى حدة :

ـ لا تسخر منى .. لقد سمعت صوت طلقين ناريين .

ارتجف جسد العقيد (محمد) ، فى هذه اللحظة ، وهتف :

ـ اتركه يا (حسين) .. أنا أطلقت الرصاصتين .

استدار إليه الضابط فى دهشة ، وقال :

ـ أنت يا سيِّدى ؟!

لوّح (محمد) بكفه ، وقال :

ـ نعم .. نعم .. إنه خطأ غير مقصود .. اتركنا وحدنا .

تطلّع إليه الضابط لحظة فى حيرة ، ثم ألقى نظرة متشكّكة على (جمال) ، وقال :

ـ كما تأمر يا سيِّدى .

وغادر الحجرة ، وأغلق بابها خلفه ، فقال (محمد) فى توتر :

ـ أمر لا يصدّقه عقل .

انتزع (جمال) نفسه من توتره ، وقال :

ـ هذا الشىء كان يستمع إلينا .

تلفّت (محمد) حوله ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ربما يواصل فعل هذا .

ثم عقد حاجبيه فى صرامة ، مستطردًا :

ـ اسمع يا (جمال) .. إننى لم أعد أتهمك بمحاولة قتل الدكتور (عامر) بالطبع ، ولكن أعتقد أننا نحتاج إلى تحرّك سريع ، للإيقاع بالقاتل الحقيقى .

ارتجف (جمال) ، وهو يقول :

ـ أتقصد ذلك الشىء ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ نعم .. أقصد ذلك الخطر .. ، .. أو ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ أو تلك الكارثة .

★ ★ ★

بكت أم (جمال) فى حرارة ، وهى تندب ابنها ، الذى ألقت الشرطة القبض عليه ، وربّتت (محاسن) على كتفها مشفقة ، وهى تقول :

ـ اطمئنى يا سيِّدتى .. لن يصاب (جمال) بسوء بإذن الله .. لقد استشرت محامى الجريدة ، وأكد لى أنه لا يوجد دليل واحد على أن (جمال) فعل هذا ، وهو لم يفعله حقًا .

قالت الأم فى مرارة :

ـ محامى الجريدة لا يكفى .. سأوكل أفضل محام فى المدينة كلها .

ربتت (محاسن) على كتفها مرة أخرى ، وقالت :

ـ بالتأكيد .. سنفعل بالتأكيد .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فالتقطت سماعته بحركة آلية ، وسمعت (جمال) يقول :

ـ أماه .. أنا (جمال) .. اطمئنى .. أنا بخير .. لقد أطلقوا سراحى ، و ...

قاطعته فى لهفة :

ـ أنا (محاسن) يا (جمال) .. كيف حالك ؟.. ماذا فعلت ؟

اختطفت الأم منها السماعة ، وهتفت :

ـ (جمال) .. ابنى .. ماذا أصابك ؟.. ماذا فعلوا بك ؟

ألصقت (محاسن) أذنها بسماعة الهاتف ، وسمعته يقول :

ـ اطمئنى يا أمى .. كل شىء على ما يرام .. لقد تأكدوا من أننى لست قاتلًا ، وأنا الآن مطلق السراح ، ولكنْ أمامى عمل عاجل ، لا بد لى من القيام به أوّلًا ، قبل عودتى للمنزل ، ولقد اتصلت بك لتطمئنى بشأنى .

سألته الأم غير مصدِّقة :

ـ أى عمل هذا ، الذى يمنعك من العودة إلى المنزل ؟

أجابها بسرعة :

ـ التحقيق الخاص بالرجل الذى لقى مصرعه .. إنها خبطة صحفية لا يمكننى التنازل عنها ..

سأنتهى منها ، وأعود على الفور بإذن الله .

قالت (محاسن) للأم فى لهفة :

ـ سليه أين سيبدأ التحقيق .. سليه بسرعة ، قبل أن ينهى المحادثة .

وفى آلية قالت الأم :

ـ أين سيبدأ التحقيق يا (جمال) ؟

أجابها (جمال) :

ـ فى المعمل الخاص بالدكتور (عامر) ، فى كلية العلوم .

أنهى المحادثة بعد عبارتين سريعتين ، لتهدئة أمه ، ولم تكد الأم تعيد سماعة الهاتف إلى موضعها ، حتى سألت فى شك وقلق :

ـ أتعتقدين أنه يذكر الحقيقة ؟

ولما لم تسمع جوابًا ، التفتت إلى حيث تقف (محاسن) ، وقالت :

ـ أتعتقدين هذا يا (محاسن) ؟

ثم ارتفع حاجباها ، وهى تدير عينيها فى المكان بدهشة ، مرددة :

ـ (محاسن) ؟!

ولكن المكان كان خاليًا ..

بلا (محاسن) ..

★ ★ ★

استقبل الدكتور (مجيد) العقيد (محمد) و (جمال) فى مكتبه ، فى كلية العلوم بجامعة (القاهرة) ، وتطلع إلى ساعته ، قائلًا :

ـ معذرة .. لقد أتيتما وأنا أستعد للانصراف ، فالساعة تجاوزت الثانية ظهرًا ، وأنا فى طريقى لـ ...

قاطعه (محمد) فى شىء من الغلظة :

ـ يؤسفنا هذا ، ولكن الأمر عاجل ، وغير قابل للتأجيل .

تنهد الدكتور (مجيد) ، وألقى نظرة أخرى على ساعته ، ثم قال :

ـ فليكن .. ما المطلوب منى بالضبط ؟

أجابه (محمد) :

ـ أنت زميل الدكتور (عامر) .. أليس كذلك ؟

هزَّ الرجل رأسه فى أسى ، وقال :

ـ نعم .. إننا زميلان منذ التحقنا بالكلية ، ولكن (رحمه الله) ، كان كتلة من العبقرية الفذة ، التى تحتاج إلى معاملة خاصة .. الحقيقة أننى لم أصدق بعد أنه انتحر ، فالشخص المفعم بالحماس مثله ، يندر أن ..

قاطعه (جمال) فى لهفة :

ـ ألديك فكرة عن طبيعة الأبحاث ، التى كان يجريها ؟

توقف الدكتور (مجيد) لحظات ، ثم قال :

ـ بالطبع .

ثم استدرك بسرعة :

ـ ولكنها مجرَّد فكرة عامة ، دون تفاصيل دقيقة .

أشعل (محمد) سيجارته ، وهو يقول :

ـ سيسعدنا أن تشرح لنا هذه الفكرة العامة .

مطَّ شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ إنك تطلب أمرًا عسيرًا للغاية .

ولكنه اعتدل ، واستطرد فى اهتمام :

ـ بشكل مبسَّط .. أنت تعلم أن الاتصالات الفضائية ليست بالأمر الهين أو البسيط ، وخاصة إذا ما أردت إجراء الاتصال مع كوكب يبعد عنا سنة ضوئية (★) مثلًا ..

(★) السنة الضوئية : مقياس فلكى للمسافات البعيدة فى الفضاء ، وهو يساوى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة ، أى حوالى ٥,٨٧ مليون مليون ميل .

ففى هذه الحالة يحتاج إتمام الاتصال إلى ما يزيد على العامين .

قال (جمال) :

ـ هذا أمر طبيعى ، فأسرع وسيلة اتصال لن تتجاوز سرعة الضوء .

نقل (محمد) بصره بينهما ، دون أن يستوعب الكثير ، وقال فى ضجر :

ـ حسن .. وماذا بعد ؟

تابع الدكتور (مجيد) :

ـ ولكن الدكتور (عامر) كانت لديه نظرية خاصة ، تقول : إنه من الممكن اختصار زمن الاتصال ، فى مثل هذه الحالة ، إلى أقل من الربع ، بحيث يمكنك إرسال رسالة إلى كوكب يبعد عنا سنة ضوئية كاملة ، واستقبال الرد ، فى زمن قدره خمسة أشهر فحسب .

عقد (جمال) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ وكيف يمكن أن يتم هذا ؟

لاحظ الدكتور (مجيد) أن (جمال) أكثر استيعابًا للأمر ، فالتفت إليه بجسده كله ، وقال : عن طريق ذبذبة خاصة ، لم يتم استحداثها من قبل .. ذبذبة تصنع ما أطلق عليه الدكتور (عامر) (رحمه الله) ، اسم (الفجوة الفضائية الزمنية) .. أو (فجوة الزمكان) .

رفع (محمد) رأسه فى امتعاض ، وقال :

ـ (الزمكان) ؟!.. أى مصطلح هذا ؟

زفر الدكتور (مجيد) فى ضجر ، فأجاب (جمال) :

ـ إنه مصطلح علمى ، يشير إلى حدوث تغيرات متوازية ، فى الزمان والمكان ، فى آن واحد .

ثم التفت إلى الدكتور (مجيد) ، وهو يستطرد :

ـ ومن الواضح أن تجارب الدكتور (عامر) قد نجحت ، على الرغم من صعوبتها ، وأمكنه التوصل إلى تلك الذبذبة النادرة الفريدة .

قال الدكتور (مجيد) فى حماس :

ـ هذا صحيح ، فلقد أخبرنى بهذا ، منذ خمسة أيام تقريبًا ، وقال : إنه يتوقع الحصول على جائزة (نوبل) ، بسبب هذا الكشف العلمى الفريد ، و ...

بتر عبارته بغتة ، ليسأل (جمال) فى شك :

ـ ولكن كيف عرفت هذا ؟.. لقد احتفظ الدكتور (عامر) بكل معادلات ونتائج أبحاثه سرًا ، فلم يشاركه إياها سوى معاونه (أشرف) ، وهو لن يفشى السر قط .

قال (محمد) فى خشونة ، وهو ينفث دخان سيجارته :

ـ لم يعد هناك داع لإفشاء السر .. لقد تسببت أبحاثه فى إحضار ذلك الشىء ، الذى أزاحه من عالمنا نهائيًا .

انعقد حاجبا الدكتور (مجيد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه قولك هذا ؟

أشار (محمد) إلى (جمال) فى عصبية ، وهو يقول :

ـ سله .. إنه الخبير العلمى فى الفريق .

استدار الدكتور (مجيد) إلى (جمال) بنظرة متسائلة ، وهمّ هذا الأخير بتفسير الموقف ، عند ما حدث فجأة أمر قلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد تردَّدت فى المكان كله صرخة رهيبة ، امتزجت بوقع أقدام أنثوية ، تعدو فى الممر بكل قوتها ..

وانتفض (جمال) فى مقعده ، عندما ميَّز فى تلك الصرخة صوتًا مألوفًا ..

صوت زميلة مكتبه ..

(محاسن) ..

★ ★ ★

لم تكد (محاسن) تسمع حديث (جمال) لأمه عبر الهاتف ، حتى حملت حقيبتها ، واندفعت تغادر المنزل ، وقفزت فى أوَّل سيارة أجرة استجابت لها ، وهتفت بسائقها :

ـ جامعة (القاهرة) .. كلية العلوم .

ومع انطلاق السيارة ، ابتسمت فى خبث ، قائلة :

ـ إذن فهى فرصة العمر يا (جمال) .. يا لك من داهية !.. ولكننى لا أقل دهاءً عنك ، وسأظفر بها قبلك .

راحت ترتب أفكارها ، وتحاول استرجاع كل ما لديها من معلومات ، عن الدكتور (عامر مراد) ، وعلوم الفيزياء ، حتى سمعت السائق يقول :

ـ وصلنا يا آنسة .

نقدته أجره ، وقفزت خارج السيارة ، وتحرَّكت فى سرعة إلى مبنى كلية العلوم . وسألت أوَّل من التقت به :

ـ أين أجد معمل الدكتور (عامر مراد) ؟.

أشار إليها الرجل ، قائلًا :

ـ فى الطابق الثانى .

ثم استطرد فى فضول :

ـ ولكن الرجل لقى مصرعه هذا الصباح .. انتحر .

أجابته بسرعة :

ـ وأنا صحفية ، ووجودى هنا مرتبط بتغطية الخبر .

قالتها وهى تهرع إلى معمل الدكتور (عامر) ، فهتف الرجل خلفها :

ـ صحفية ؟!.. ستذكرين اسمى إذن .. لقد أرشدتك إلى المعمل .. أنا...

لم تسمع الاسم ، وهى تلوِّح هاتفة :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

ولمحت سيارة (جمال) (السيات) الصغيرة ، تقف فى ساحة انتظار السيارات ، فعقدت حاجبيها ، مغمغمة لنفسها :

ـ ذلك السخيف وصل قبلى .. هذه ميزة امتلاك سيارة خاصة .

ولكنها لم تكد تصعد إلى الطابق الثانى ، حتى رأت (جمال) و (محمد) ، وهما يدخلان إلى حجرة الدكتور (مجيد) ، فقالت لنفسها فى دهشة :

ـ عجبًا !.. كيف يتحرَّك الاثنان معًا ؟.. هل أصبح (جمال) و (محمد) مرشدا للشرطة ؟

إلا أنها لم تلبث أن طرحت كل هذه الأفكار جانبًا ، وهى تبتسم فى خبث ، وتستطرد :

ـ ولكنهما ارتكبا غلطة العمر ، بلجوئهما إلى القنوات الرسمية .. سيضيعان لحظات ثمينة ، يمكننى استغلالها للظفر بالسبق الصحفى .

وتسلّلت فى خفة إلى تلك الحجرة ، التى تحمل اسم الدكتور (عامر) ، وهمّت لحظة بطرق الباب ، ثم هزّت كتفيها ، متمتمة :

ـ أظنه لن يعود إلى الحياة غاضبًا ؛ لو أننى تسلّلت إلى معمله دون إذنه .

ودفعت الباب فى حذر ، وانسلّت فى خفة إلى المكان ..

لم يكن هذا معمله ، كما كانت تتوقّع ، بل كانت حجرة مكتب صغيرة ، بها مكتب ومكتبة صغيرة ، وفى جدارها الخلفى باب آخر نصف مفتوح ، يقود إلى المعمل ..

وعلى أطراف أصابعها ، تقدّمت (محاسن) من باب المعمل نصف المفتوح ، وهمّت بعبوره أو ...

وفجأة ، تناهى إلى مسامعها حديث خافت ، يبدو وكأنه من طرف واحد ..

طرف يجيب أسئلة غير مسموعة ..

واتسعت عينا (محاسن) فى ارتياع ..

لقد كان الحديث خطيرًا ..

بل بالغ الخطورة ، حتى أنها أقدمت على أكبر غلطة فى حياتها ..

أطلقت شهقة قوية ..

ومع شهقتها ، حدثت جلبة فى المعمل ، ثم اقترب وقع أقدام سريعة من بابه ..

وفى ذعر هائل ، جذبت (محاسن) باب المعمل ، وأغلقته ، ولكن يدًا قوية راحت تجذبه من الطرف الآخر ، فصرخت هى :

ـ النجدة .. النجدة .. أنقذونى .

كانت ترتجف خوفًا وهلعًا ، ولا تدرى ماذا تفعل ، ولا أحد يستجيب لندائها ، ولكنها لمحت فجأة مفتاح الباب ، فى ثقبه الخاص أمامها ، فأسرعت تديره ، وأغلقت الباب فى إحكام ، ثم جذبت المفتاح ، وألقته بعيدًا ، وتراجعت تلقى جسدها على أقرب مقعد إليها ، وهى تلهث فى توتر وانفعال جارفين ..

وتوقّفت الجلبة فى المعمل ، وساد هدوء عجيب ، جعلها تحبس أنفاسها ، وتتطلّع إلى الباب فى ترقّب وارتياع ..

ثم أطلقت شهقة رعب هائلة ..

لقد رأت أمامها ذلك الظلّ الشفاف ، وهو يخترق الباب المغلق ، ويعبره فى نعومة ، ثم يتجه إليها فى خطوات سريعة ..

وصرخت (محاسن) ..

صرخت بكل الرعب المتفجّر فى أعماقها ، وانطلقت تعدو فى الممر الخارجى بكل قوتها ، وهى تصرخ ، وتصرخ ، وتصرخ ..

وفى نهاية الممر ، وجدت حجرة مفتوحة ، فقفزت داخلها ، وأغلقت الباب خلفها فى قوة ..

ولكن ذلك الظل شبه البشرى اخترقه مرة أخرى ، ووقف أمامها ، وراح يتجسّد فى بطء ، والتمع فى قبضته نصل خنجر حاد ..

وصرخت (محاسن) أكثر ، وأكثر ، و ...

وهوى الخنجر القاتل .

★ ★ ★

٥ ـ قاتل من عالم اخر ..

لم يكد (جمال) يسمع صرخة (محاسن) ، حتى وثب من مقعده ، وانطلق يعدو خارج الحجرة ، فى الممر الطويل ، الذى يحوى حجرات أعضاء هيئة التدريس ، وهو يهتف :

ـ أين هى ؟.. أين ذهبت ؟

أجابه أحد العمال فى اضطراب :

ـ هناك .. فى حجرة الملفات .. لقد كانت تجرى كما لو أن الشيطان نفسه يعدو خلفها .

قال (محمد) ، وهو ينزع مسدسه ، ويعدو خلف (جمال) .

ـ ربما هذا ما حدث بالفعل .

فغر العامل فاه فى ذهول ، وهو لا يفهم شيئًا مما يحدث حوله ، فى حين بلغ (جمال) حجرة الملفات ، وراح يجذب مقبضها فى قوة ، وهو يصيح :

ـ إنها بالداخل .. الباب مغلق .. لقد سجنها .

غمغم العامل .

ـ كلا .. إنها وحدها .

لم يكد ينطق العبارة ، حتى انطلقت داخل الحجرة صرخة مروّعة ، وكأن أحدهم يهمّ بذبحها ، فصرخ (جمال) .

ـ إنه بالداخل معها .. إنه بالداخل .

دفعه (محمد) جانبًا وهو يهتف ..

ـ هذا يحتاج إلى إجراء خاص .

وصوَّب مسدسه إلى رتاج الباب ..

وأطلق النار ..

وبدفعة قوية من كتفه ، سقط الرتاج تمامًا ، وانفتح الباب على مصراعيه ، وتجمَّدت الدماء فى عروق (جمال) وهو يهتف :

ـ ربَّاه !.. (محاسن) .

كانت ساقطة فى وسط الحجرة ، وصدرها وبطنها ملوثان ببقعتين كبيرتين من الدماء ، فاندفع (جمال) نحوها ، وحملها هاتفًا :

ـ الإسعاف .. اطلبوا سيارة إسعاف بسرعة .. إنها تفقد الكثير من الدماء .

أما (محمد) ، فراح يدير عينيه حوله فى عصبية ، وهو يقول :

ـ هذا الوغد هنا .. أقسم إنه حولنا ، فى مكان ما .

وفى إعياء وتهالك ، فتحت (محاسن) عينيها ، وغمغمت :

ـ الشبح .. إنه .. إنه ..

مسح (جمال) العرق المتصبِّب على جبينها ، وهو يقول متعاطفًا :

ـ اهدئى يا عزيزتى .. لا تبذلى جهدًا .

ولكنها أزاحت أصابعه فى صعوبة ، وقالت :

ـ المستشار .. هد ... هد ...

ثم انهارت فاقدة الوعى ، فكرَّر (جمال) صراخه :

ـ الإسعاف بسرعة .. أسرعوا بالله عليكم .

وصاح العقيد (محمد) فى غضب :

ـ اكشف وجهك أيها الحقير .. قاتل كرجل ولو لمرة واحدة فى حياتك كلها .

ولكن صيحاته ، التى ردَّدتها جدران الكلية طويلًا ، لم تلق صدى قط ..

وضاعت فى الفراغ ..

الفراغ القاتل ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة مساءً ، عندما أشعل العقيد (محمد) سيجارته ، وهو يقف فى قاعة الانتظار بالمستشفى ، ونفث دخانها فى توتر شديد ، وهو يقول :

ـ الأطباء يقولون : إنها ستنجو بإذن الله .

قال (جمال) فى مرارة :

ـ لو أصابها مكروه ، لن أسامح نفسى قط .

نفض (محمد) رماد سيجارته فى عصبية ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟.. إنك لم تفعل شيئًا .. هى التى أتت بقدميها إلى هناك .

زمجر (جمال) ، وقال :

ـ كانت تسعى وراء ذلك السبق الصحفى ، الذى أخبرت به أمى .

قال (محمد) فى حدة :

ـ إنه خطؤها .

تقدَّمت منه ممرضة القسم ، فى هذه اللحظة ، وقالت :

ـ التدخين ممنوع هنا .

مطَّ شفتيه فى حنق ، وأطفأ سيجارته ، مغمغمًا :
ـ إنهم يضطهدون المدخنين فى كل مكان الآن .
قال (جمال) :
ـ التدخين عادة ضارة ، و ...
قاطعه فى حدة ، وهو يلوِّح بذراعه :
ـ لست أرغب فى سماع محاضرة عن مضار التدخين .
ثم تحرَّك مغادرًا قاعة الانتظار ، مستطردًا :
ـ ابق أنت فى انتظار صديقتك ، وسأواصل أنا عملى .
سأله (جمال) فى اهتمام :
ـ ماذا ستفعل ؟
توقَّف وهو يجيب :
ـ لن أخبرك .
ثم أشار بسبَّابته حوله ، مستطردًا :
الجدران لها آذان كما تعلم .
وغادر المكان مسرعًا ، فزفرت الممرضة مغمغمة :
ـ إنه شديد العصبية .
أجابها (جمال) :
ـ ولكنه يؤدى واجبه جيدًا .
وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حسم :
ـ وهذا يكفى .
أما (محمد) ، فقد غادر المستشفى ، وهو يشعر بتوتر بالغ ، وقاد سيارته مبتعدًا ، وهو يقول لنفسه :

من يصدِّق أن هذا يحدث ؟.. أنا أطارد شبحًا ؟!.. كيف يمكننى تسجيل هذا فى محضر رسمى ؟!
هزَّ رأسه فى حنق ، وعاد يستطرد :
ـ لو أنك هنا أيها الشبح الوغد ، تتجسَّس على أقوالى وأفعالى ، فلتعلم أننى لن أفصح عن وجهتى قط .
ثم ابتسم فى عصبية ، مردفًا :
ـ ويمكنك بالطبع أن تصحبنى إلى هناك ، دون أن أراك .
كان هذا ما يثير القدر الأعظم من سخطه بالفعل ..
عجزه عن تحديد موقع خصمه ..
أو خطوته التالية ..
أو حتى طبيعته ..
إنه لم ير منه سوى ظلّ هلامى شفاف ، يشبه فى تكوينه هيئة البشر ..
تمامًا كما يحدث فى أفلام الخيال العلمى ، التى يبغضها كل البغض ..
فجوات فضائية ، ومخلوقات عجيبة ، وأسلحة أشعة ، و ...
ولكن هذا المخلوق يختلف ..
إنه لا يستخدم تلك الأسلحة العجيبة ، التى تظهر فى أفلام الخيال العلمى ورواياته ..
فقط المسدسات والخناجر ..
وربما العصى والهراوات فى المرة القادمة ..

إنه كائن من كوكب الحوارى والأزقة ..

كائن متشرد مشاغب ..

والأسخف أنه يجهل كيف وصل هذا الكائن إلى الأرض ؟..

ولماذا ؟..

لماذا يقتل ويبيد كل من يدرك حقيقة وجوده ، على هذا النحو البشع ، دون شفقة أو رحمة ؟!..

ثم ما الذى يعنيه ذلك القول ، الذى حاولت تلك الصحفية إبلاغهم إياه ، قبل أن تفقد وعيها ؟

من ذلك المستشار ، الذى أشارت إليه ؟..

وما صلته بما يحدث ؟..

أرهقته الأسئلة ، وأثقلت ذهنه ، حتى أصابه الضجر ، فتمتم فى توتر :

ـ فليكن .. ربما عثرنا على كل الأجوبة هناك .

قاد سيارته بعدها فى صمت ، حتى بلغ منطقة هادئة ، فى مدينة المهندسين ، أوقف السيارة فيها ، وهبط منها ليتجه إلى مبنى بعينه ، وأبرز بطاقته لرجل شرطة يقف أمامه ، وهو يقول :

ـ هل أعددتم كل شىء .

أدى الجندى التحية العسكرية ، وهو يقول :

ـ نعم يا سيدى ، ونحن فى انتظار سيادتك ، للقيام بالمهمة .

أومأ (محمد) برأسه ، دون هدف محدود ، ودلف إلى المبنى ، وصعد إلى الطابق الثالث منه ، حيث يقف ضابط شرطة آخر ، مع موظف مدنى ، وأدى الضابط التحية العسكرية بدوره ، وهو يقول :

ـ هل نبدأ يا سيادة العقيد ؟

أشار (محمد) بيده ، قائلا :

ـ افعل .

أشار الضابط بدوره إلى الموظف المدنى ، ففتح دفتره ، وراح يدوّن بصوت مسموع :

إنه فى يوم (.....) ، وبموافقة السيد مدير النيابة (.....) ، تم فتح شقة الدكتور (عامر محمد مراد) ، الذى انتحر بتاريخ (....) ، وذلك لتفتيشها ، والبحث فيها عن أية أدلة أو قرائن أو ...

واصل الرجل تلاوة الأمر الرسمى ، فى حضور بوّاب البناية ، و (محمد) يستمع إليه فى ضجر ، حتى انتهى ، فأخرج الضابط من حرز رسمى سلسلة المفاتيح ، التى تم العثور عليها فى ثياب الدكتور (عامر) ، وفتح الباب ، و ...

وشهق الجميع فى دهشة ، فى حين انعقد حاجبا العقيد (محمد) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو يحدّق فى الشقة ، التى انقلبت محتوياتها رأسًا على عقب ، والتى اندفع إليها الضابط ، وهو يقول فى غضب :

ـ أحدهم سبقنا إلى هنا .

غمغم (محمد) فى عصبية :

ـ كنت أتوقع هذا إلى حد كبير .

التفت إليه الضابط فى دهشة ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟

قال (محمد) فى حدة :

ـ لدى أسبابى .

ثم أضاف فى صرامة :

ـ ولكننا سنتجاهل كل ما أمامنا ، وسنعيد قلب هذه الأشياء رأسًا على عقب ، فربما نسى من سبقنا شيئًا ، أو أهمل العثور على دليل بالغ الأهمية .

هيا .. سنبدأ عملنا .

وسبق رجاله إلى العمل ..

وبمنتهى الحماس ..

أو الغضب ..

★ ★ ★

انحنى طبيب المستشفى يفحص نبض (محاسن) ، بعد أن استقرَّت فى فراشها ، وهو يقول :

ـ لقد نجت بأعجوبة .. أصابتها طعنة فى صدرها ، على بعد سنتيمترات من البطين الأيسر ، وأخرى فى معدتها تمامًا ، وفقدت لترًا كاملًا من الدم ، ولكن كل شىء الآن على ما يرام والحمد لله .

تنهَّدت الممرضة ، وقالت :

ـ حمدً لله .. صديقها كاد يقتل نفسه حزنًا عليها فى الخارج .

تلفَّت الطبيب حوله ، وقال :

ـ وأين ذهب الآن ؟

هزَّت كتفيها ، قائلة :

ـ لست أدرى .. لقد اختفى فجأة ، بعد نجاح العملية .

ابتسم الطبيب فى خبث ، وهو يلملم أدواته ، قائلًا :

ـ هكذا الصحفيون ورجال الفن .. عواطفهم تنسكب بسرعة الصاروخ ، وتنحسر بسرعة البرق .

شاركته الممرضة ضحكة ساخرة ، ثم تبعته إلى الخارج ، وهى تسأله :

ـ وماذا عنها ؟.. هل أحقنها بعقار مسكِّن ، قبل أن تستعيد وعيها ؟

أجابها فى آلية :

ـ نعم ، وهى تحتاج إلى نصف لتر من الجلوكوز ، ومثله من الـ ...

تلاشى صوتهما وهما يبتعدان عن الحجرة ، بعد أن أغلقت الممرضة الباب خلفها ، وران على الحجرة صمت ثقيل ، إلا من ذبذبة آلات رسم القلب والأكسجين ، التى راحت تتردَّد فى رتابة ، وتضفى على الحجرة جوًا رهيبًا ..

وفجأة ، انفصل عن الجدار ظلّ نصف شفاف ، توقَّف لحظات فى فراغ الحجرة ، ثم تقدَّم فى هدوء إلى فراش (محاسن) ، ووقف إلى جواره ، وراح يتجسَّد فى بطء ، حتى أصبح فى هيئة بشرية واضحة ، بذلك الزى الأسود ، والمنظار العجيب ، والجهاز الشبيه بأسطوانات الأكسجين خلف ظهره ..

ثم استلّ خنجرًا ماضيًا ، ورفعه فى هدوء ، ثم هوى به ؛ ليطعن تلك الراقدة أمامه ..

يطعنها فى مقتل .

★ ★ ★

٦ ـ أوَّل الخيط ..

مطَّ (محمد) شفتيه فى غضب ، وطوَّح الكتاب الذى يمسك به ، على مرمى يده ، وهو يقول فى حنق :

ـ مهمة فاشلة .. لم نعثر على ذرة من الرمال ، تفيد سير القضية .

أجابه الضابط فى ارتباك :

ـ لقد بذلنا قصارى جهدنا يا سيادة العقيد ، ولكن من الواضح أن ذلك الذى ...

قاطعه (محمد) فى سخط :

ـ الذى سبقنا .. أليس كذلك ؟.. بالتأكيد .. ذلك الوغد الذى سبقنا حصل على كل شىء ، ولم يترك لنا سوى كومة من الكتب العلمية ، التى لا أفهم منها حرفًا واحدًا ، وأثاث مبعثر فى كل مكان .

غمغم الضابط :

ـ على الأقل ، كان يعرف ما يبحث عنه .

زوى العقيد (محمد) ما بين حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :

ـ نعم .. كان يعرف ما يبحث عنه .

ثم ركل سلة المهملات المجاورة لمكتب الدكتور (عامر) ، وهو يستطرد :

ـ يعرفه جيدًا .

سقطت السلة ، وتبعثرت محتوياتها ، فتطلَّع إليها (محمد) فى اهتمام بالغ ، ثم انحنى يلتقط ورقة معتصرة من بينها ، وهو يتمتم :

ـ ترى هل ..

فضَّ الورقة فى سرعة ، وراح يقرأ محتواها فى اهتمام بالغ .. كان مجرَّد مسوَّدة ، أو صفحة من مذكرات يومية ، اعتاد الدكتور (عامر) تدوينها ، ولكنه أخطأ كتابة جزء منها ، فانتزعها وألقاها فى سلة المهملات ، وأعاد تدوينها على الأرجح ..

وفى هذه المسوَّدة ، كان هناك الكثير ..

الكثير جدًا ..

وبرقت عينا العقيد (محمد) ، وهو يدسّ الورقة فى جيبه ، قائلًا :

ـ كفى يا رجال .. لقد حصلنا على ما يكفينا .

وارتسمت على طرف شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يستطرد :

ـ وعرفنا من هو خصمنا بالضبط .

★ ★ ★

كان خنجر ذلك القاتل غير العادى ، فى طريقه إلى قلب (محاسن) مباشرة ، عندما برز (جمال) فجأة ، من خلف ساتر فى ركن الحجرة ، وهو يقول :

ـ كنت واثقًا من أنك ستفعلها .

استدار القاتل بسرعة إلى (جمال) ، وبدا مظهره مخيفًا ، فى زيه الحالك السواد ، الذى يخفى جسده كله ، وذلك المنظار المخيف ، الذى يعكس أضواء الحجرة كلها ..

ولكن (جمال) لم يسمح لذلك الشىء بإثارة خوفه وذعره مرة أخرى ..

لقد انقضّ عليه بكل قوته وسرعته ، قبل أن يمنحه الفرصة للتحرّك والتفكير ..

ولم يكن الأمر بالخطورة التى تصوّرها ..

قبضته هوت على فك القاتل ، كما تهوى على فك أى بشرى عادى ، وألقته أرضًا ، ثم وثب نحوه ، وركله فى معدته ، وهو يقول :

ـ عجبًا !.. لماذا تبدو بشريًا إلى هذا الحد ؟

حاول القاتل أن ينهض ، ولكن (جمال) ركله مرة أخرى فى فكه ، مستطردًا :

ـ إنك حتى لم تعد تخيفنى .

وفى تلك اللحظة ، فتحت الممرضة الباب ، وصرخت فى ارتياع :

ـ ما هذا ؟.. ماذا يحدث هنا ؟!

التفت إليها (جمال) ، وقال :

ـ لا تتدخّلى .. ابتعدى بسرعة .

وعندما عاد يستدير إلى ذلك القاتل ، كان قد بدأ يتلاشى تدريجيًا ، فصاح فى ذعر :

ـ لا .. لا تفعلها .

وانقضّ عليه ، ليلكمه مرة ثانية ، ولكن قبضته عبرت جسد القاتل ، كما لو كان مجرّد صورة هولوجرافية ، فتراجع (جمال) فى توتر ، وهو يقول :

ـ سحقًا لهذا .. لقد بلغ ما يبتغى .

وفى مرارة وعجز ، راقب ذلك القاتل فوق الطبيعى ، وهو ينهض واقفًا ، وجسده يكتسب شفافية أكثر وأكثر ، فى حين جحظت عينا الممرضة ، وشهقت هاتفة :

ـ عـ .. عفريت .

ثم هوت فاقدة الوعى ..

أما ذلك الظلّ القاتل ، فقد اتجه نحو (جمال) ، فى حركة توحى بالغضب ، وتراجع (جمال) قائلًا فى عصبية :

ـ هذا قتال غير متكافئ ..إنك تمتلك قدرات فوق طبيعية .

ولكن الظلّ اخترق فراش (محاسن) ، وجسدها ، وعبرهما إلى حيث يقف (جمال) ، الذى لكمه مرة ، وثانية ، وثالثة ، واخترقته قبضته فى المرات الثلاث ، دون أن يهتزّ له جفن ..

ثم فجأة ، توقّف (جمال) ، واعتدل قائلًا :

ـ مهلًا .. أنت أيضًا عاجز عن إيذائى .

توقّف الظلّ بحركة حادة ، كما لو أن القول قد باغته ، فتابع (جمال) فى حماس :

ـ بالطبع .. كيف لم أنتبه إلى هذا ؟ إنك لا تستطيع لمسى إلا عندما أستطيع أنا أيضًا لمسك .. هذا واضح .. إننا نتساوى فى هذا الأمر .

ظلّ الظلّ ساكنًا لحظة ، ثم تزايدت شفافيته ، حتى تلاشى تمامًا ، فهتف (جمال) ، وهو يتلفّت حوله :

ـ أين ستذهب .. لقد انكشف أمرك .. ماذا ستفعل الآن ؟

ولكن شيئًا حوله لم يحدث ..

لقد ساد صمت رهيب ، مخيف ، جعل قلبه يخفق فى عنف ..

كان واثقًا من أن ذلك الشيء لم يبتعد ..
إنه هنا ، فى مكان ما ..
يراقب ..
يستمع ..
يترقب ..
يتحفز ..
وفى لحظة ما ، سينقضّ ..
وسيقتل ..
ولم يكن أمام (جمال) سوى أن يتلفّت حوله طوال الوقت ..
وينتبه ..
ويتحفز بدوره ..
ولكن فجأة ، ظهر الطبيب المعالج ، واتسعت عيناه فى دهشة ، وهو ينقل بصره ما بين الممرضة الفاقدة الوعى ، و (جمال) الذى يدير عينيه فيما حوله فى عصبية ، فهتف :
ـ ما هذا بالضبط ؟.. من أنت ؟
اندفع (جمال) نحوه ، وقال :
ـ أريد نقل هذه المريضة من هنا .. وجودها فى هذا المكان يعرّضها لخطر بالغ .
صاح به الطبيب فى توتر :
ـ أى خطر .. إننا نوليها عناية فائقة .
ثم أزاحه جانبًا ، واتجه نحو (محاسن) ، وفحصها فى سرعة ، ثم استطرد :

ـ ها هى ذى ، فى خير حال .. ستستعيد وعيها بعد ساعة على الأكثر ، و ...
بتر الطبيب عبارته فجأة ، واتسعت عيناه فى ذعر وذهول ، ثم تراجع فى حركة عنيفة ، كما لو أن صاعقة قد أصابته ، عندما رأى ظلًا بشريًا يتجسّد أمامه ، وهو يمسك خنجرًا ، ويغرسه فى جسد (محاسن) ..
فى موضع القلب تمامًا ..
ولم يكن الخنجر مغروسًا فى قلبها بالفعل .
فقط ، كان يعبر جسدها ، كظلّ غير عادى ، والظلّ الممسك به يتجسّد فى بطء ..
وصرخ (جمال) .
ـ لا .. إنه يقتلها ..
واندفع نحوه ، وحاول أن يضربه ، أو يلكمه ، أو يزيحه جانبًا ..
ولكن الظلّ تراجع فى بطء ، وتخلّى عن خنجره ، وتركه فى موضعه ، فى جسد (محاسن) ..
وهوى قلب (جمال) بين قدميه ..
لقد تحرّك الظلّ وخنجره ، فى اتجاهين متعارضين تمامًا ..
هو تلاشى فى سرعة ، والخنجر تجسّد بنفس السرعة ..
وشهقت (محاسن) فى قوة ، عندما تحوّل الخنجر إلى كيان مادى ، وهو مغروس حتى مقبضه فى قلبها ..
شهقت شهقة أخيرة ، ثم استكان جسدها كله ..

وانهار (جمال) ، وهو يصرخ :

ـ لقد قتلها .. ذلك الشيء اللعين ... قتلها .

وخُيِّل إليه لحظتها أن جدران الحجرة تردّد ضحكة ساخرة ، ظافرة ، شامتة ..

ضحكة ظلّ قاتل ..

★ ★ ★

ألقى العقيد (محمد) سيجارته جانبًا ، وهو يدلف إلى حجرة ضابط مباحث القسم ، الذى يتبعه المستشفى ، وقال :

ـ أين هو ؟

أشار الضابط إلى حجرة جانبية ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك أن تصدّق .. إنه نائم ، تحت حراسة ثلاثة من الجنود كما أمرت .

قال (محمد) :

ـ من الطبيعى أن يسقط نائمًا ، فهناك عفار مهدىٰ يسرى فى عروقه منذ الصباح ، دون أن يجد الفرصة لحظة واحدة للراحة .

هزّ الضابط رأسه فى حيرة ، وقال :

ـ ولو .. كيف يمكنه أن يستغرق فى النوم ، بعد أن ارتكب فعلته الرهيبة هذه ؟!.. لقد قتل فتاة مريضة ، فاقدة الوعى ..

أشعل (محمد) سيجارة أخرى ، وهو يقول :

ـ لا يوجد دليل واحد على أنه هو القاتل .

أجاب الضابط فى شىء من التوتر :

ـ هذا ما يقوله هو .. بل إنه يحاول ادعاء الجنون ، ويقصّ قصة ساذجة ، يستحيل أن يصدّقها أى شخص عاقل .

نفث (محمد) دخان السيجارة ، وهو يقول :

ـ قصة عن شبح يظهر ويختفى .. أليس كذلك ؟

حدّق الضابط فى وجهه بدهشة ، وهتف :

ـ تمامًا .. هل سبق أن أخبرك بها .

هزّ (محمد) كتفيه ، وقال :

ـ يمكنك أن تقول : إننى مررت بظروف مشابهة .

عاد الضابط يحدّق فى وجهه بدهشة ، وهو يقول :

ـ سيادة العقيد .. هل تعنى بالفعل ما تقول ؟

لوّح (محمد) بكفه ، وقال :

ـ دعك مما أقوله أنا ، وأخبرنى .. ماذا يقول شهود الحادث ؟

مطّ الضابط شفتيه ، وقال :

ـ إنهم مجانين أيضًا .. الممرضة تقول : إنها رأت عفريتًا فى الحجرة ، والطبيب يؤيد أقوال هذا الصحفى المخبول .

قال (محمد) فى حزم :

ـ هذا يعنى أنك لا تمتلك الحق فى احتجاز الصحفى ، ما دامت أقوال الشهود تؤكّد أنه ليس القاتل .

هتف الضابط فى عصبية :

ـ ومن نتهم إذن ؟.. العفريت ؟!

أجابه (محمد) فى صرامة :

ـ إتهم من يحلو لك ، ولكن لا تجعل وكيل النيابة يسخر منك ، وأنت تقدّم له شخصًا أجمع الشهود على تبرئته ، لمجرّد أنك عجزت عن الإيقاع بالقاتل الحقيقى .

ثم دفع باب الحجرة المجاورة ، وقال :

ـ هيا .. استكمل إجراءات إطلاق سراحه ، حتى أتبادل حديثًا سريعًا معه .

وأشار لجنود الحراسة الثلاثة ، فغادروا الحجرة ، وتركوه وحده مع (جمال) ، الذى استغرق فى نوم عميق ، فوق فراش متهالك ، فى ركن الحجرة ، فتطلّع (محمد) إلى ساعته ، وغمغم :

لقد حصل على ساعتين من النوم العميق ، وهذا يكفيه .

ثم جلس على طرف الفراش ، ودفع (جمال) فى رفق ، قائلًا :

ـ هيا استيقظ .. ليس أمامنا وقت لنضيعه .

وعلى الرغم من هدوء وبساطة الحركة ، إلا أن (جمال) قفز من الفراش مذعورًا ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا .. ابتعد .

هتف به (محمد) :

ـ رويدك يا فتى .. إنه أنا .. هل أصابك كابوس آخر ؟

حدّق (جمال) فى وجهه لحظة ، ثم جلس إلى جواره ، على طرف الفراش ، ولهث فى شدة ، كما لو أنه يعدو منذ ساعة كاملة ، وقال :

ـ الكوابيس لم تعد تنقطع عن زيارتى قط ، كلّما أغمضت عينى .. تصوّر .. لقد رأيت ذلك الظلّ فى كابوس ، وهو يقتل (محاسن) ، و ... بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى هلع ، وهو يهتف :

ـ ولكن هذا ليس كابوسًا .. إنه حقيقة .. لقد قتل (محاسن) .. أليس كذلك ؟.. قتلها كأى وغد جبان .

وترقرقت عيناه بالدموع ، ولكن (محمد) قال فى سرعة ، لينتزعه من حالة الانهيار ، قبل أن يبلغها :

ـ لقد عرفنا طبيعته على الأقل .

التفت إليه (جمال) ، هاتفًا :

ـ حقًا ؟!.. أهو مخلوق فضائى كما توقّعنا ؟

هزّ (محمد) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا .. لا أعتقد هذا .

ثم ناوله الورقة ، التى عثر عليها فى سلة مهملات الدكتور (عامر) ، مستطردًا :

ـ لقد عثرت على هذه ، وأعتقد أنك أقدر على فهمها منى .

التقط (جمال) الورقة ، وراح يقرأ ما بها بصوت مسموع ، ولهفة حقيقية :

ـ الثامن من أغسطس .. أتممنا اليوم ، أنا و (أشرف) ، أوّل تجربة للذبذبة الجديدة ، ولكن النتيجة لم تكن كما توقّعنا .. صحيح أن الفجوة (الزمكانية) قد حدثت ، ولكن ليس فى غياهب الفضاء ، بل فى الـ ...

توقّف عن القراءة وقال :

ـ هناك جزء ممزّق وضائع .

قال (محمد) فى اهتمام :

ـ اقرأ الجزء الآخر .

واصل (جمال) القراءة ، قائلًا :

ـ ويبدو أن (آينشتين) لم يكن مخطئًا ، عندما تحدّث عن الأبعاد الأخرى ، فتجربتنا تثبت هذا ، و ...

كان هذا آخر ما تحويه الورقة ، فعقد (جمال) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ أهذا كل شىء ؟

قال (محمد) فى عصبية :

ـ ألا يكفيك لتفهم الموقف كله ؟

أعاد (جمال) قراءة الورقة ، وقال :

ـ إنها تعنى أن هذا المخلوق الذى نواجهه ، ليس كائنًا فضائيًا .

هتف (محمد) فى حماس :

ـ لقد خمّنت هذا .

غمغم (جمال) :

ـ وربما يعنى أنه كائن من بُعد آخر .

مال (محمد) برأسه إلى الأمام ، وهو يقول فى دهشة جائرة :

ـ من ذا ؟!

تنحنح (جمال) ، وقال :

ـ من بُعد آخر .. سأحاول شرح الأمر بشكل مبسّط .. أنت تعلم أن كل شىء فى العالم له ثلاثة أبعاد رئيسية .. الطول ، والعرض ، والارتفاع .. وعندما وضع (آينشتين) (*) نظرياته ، أضاف إليها البُعد الرابع ، وهو الزمن ، وأشار إلى وجود بُعد خامس ، يختلف منظور الأشياء فيه عن عالمنا ، ذى الأبعاد الأربعة ، و ...

كانت تلك النظرة الحائرة العصبية التى تطلّ من عين (محمد) ، تكفى لأن يبتر (جمال) حديثه ، ويقول فى سرعة :

ـ باختصار .. هناك عوالم حولنا ، لا يمكننا رؤيتها ، أو الشعور بها ، ولها قواعد وقوانين طبيعية ، تختلف تمامًا عن قوانين عالمنا .

قال (محمد) فى لهجة تحمل شيئًا من الاستنكار :

ـ وهذا الشىء جاء من هناك ؟!

أومأ (جمال) برأسه ، وقال :

ـ هذا ما يبدو .

صمت (محمد) لحظات ، ثم قال فى حزم :

(*) ألبرت آينشتين : (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥م) : عالم فى الفيزياء النظرية ، من أصل ألمانى ، عاش فى (أمريكا) ، أجرى أبحاثًا على ظاهرة الكهروضوئية ، ووضع أسس النظرية (النسبية الخاصة) ، وحصل على جائزة (نوبل) عام ١٩٢١م فى الفيزياء ، وأخرج نظرية (النسبية العامة) ، التى تحدّد العلاقة بين الجاذبية وانحناء الفراغ ذى البعد الزمنى الرابع .

ـ هل تعلم أين يمكننا الحصول على كل الأجوبة ؟

ونهض فى حماس ، مضيفًا :

ـ عند ذلك المساعد .. (أشرف) .

هتف (جمال) :

ـ بالطبع .. لقد شارك الدكتور (عامر) كل تجاربه ، وهو يعرف الكثير بالتأكيد .. كيف لم أنتبه إلى هذا ؟

قال (محمد) :

ـ أنا انتبهت إليه ، وحصلت على عنوان (أشرف) هذا ، وسنذهب إليه على الفور .

تطلّع (جمال) إلى ساعته ، وقال :

ـ ولكنها العاشرة والنصف مساءً الآن .

قال (محمد) فى صرامة :

ـ الواجب لا توقيت له .. هيا .

غادرا قسم الشرطة معًا ، وضابط المباحث يتابعهما فى سخط غاضب ، وأشار (محمد) إلى سيارة (جمال) الصغيرة ، وهو يقول :

ـ اترك سيارتك هنا ، وسنذهب بسيارتى ، و ...

قاطعه فجأة أحد رجال الشرطة ، وهو يسرع نحوهما ، قائلًا :

ـ سيادة العقيد .. هناك اتصال عاجل .

سأله (محمد) :

ـ من ؟!

ارتبك الجندى لحظة ، ثم قال :

ـ سيادة اللواء مدير الأمن .

انعقد حاجبا (محمد) فى غضب ، وغمغم فى حدة :

ـ إنه ضابط المباحث .. لقد تقدّم بشكوى عاجلة .. ياله من سخيف !

ثم استدار إلى (جمال) ، قائلًا :

ـ اسمع .. إنه يحاول منعى من الإفراج عنك .. أنا أعرف هذه الأساليب .. ولكننا لن نمنحه الفرصة لهذا .. غادر المكان على الفور ، واتجه أنت إلى منزل (أشرف) ، وسألحق بك بعد أن انتهى من هذه المشكلة .. أسرع ، ولا تضيع الوقت .. ها هو ذا العنوان .

أسرع (جمال) بالفعل إلى سيارته ، وضابط المباحث يراقبه من نافذة حجرته فى غضب ، وانطلق بها مبتعدًا ، فى حين شدّ العقيد (محمد) قامته ، وقال فى حزم :

ـ يا أهلًا بالمعارك .

وعاد إلى قسم الشرطة ..

أما (جمال) ، فقد استرشد بالعنوان ، واتجه مباشرة إلى منزل (أشرف) ، وعندما أوقف السيارة أمام المنزل ، لاحظ أن الأضواء كلها مطفأة ، فتمتم :

ـ يبدو أننى سأضطر إلى إيقاظ (أشرف) هذا من نومه .

صعد إلى شقة هذا الأخير ، وتردّد لحظة ، قبل أن يضغط جرس الباب ، ومضت لحظات من الصمت ، ثم أضيئت الأنوار ، وانفتح الباب ، وظهر (أشرف) على عتبته ، وهو يقول فى حنق :

ـ من يأتى فى مثل هذه الساعة ؟

غمغم (جمال) فى حرج :

ـ أنه أنا .. لقد ..

وفجأة ، بتر عبارته ، وهو يحدّق فى عينى (أشرف) فى دهشة وذعر..

وفى اللحظة التالية ، هوت ضربة قوية على رأسه ، قبل أن يفيق من ذهوله ، فترنّح جسده فى عنف ، ثم استقبل الضربة الثانية ، و ...

وسقط فاقد الوعى .

★ ★ ★

٧ ـ المواجهـة ..

انعقد حاجبا مدير الأمن ، وهو يستقبل العقيد(محمد) فى مكتبه ، قائلًا فى صرامة :

ـ ماذا تفعل بالضبط يا (محمد) ؟.. كيف أتلقّى من ضابط مباحث شكوى بأنك تحاول إنقاذ متهم فى جريمة قتل ؟.. ألا تعرف ما يعنيه هذا ، بالنسبة لوظيفتك ومستقبلك ؟!

شدَّ (محمد) قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ إننى لم أخالف القانون يا سيِّدى .

قال مدير الأمن :

ـ ولكنك خالفت كل القواعد والأعراف ، المعمول بها فى عالمنا ، عندما تجاوزت إرادة زميلك ، وأفرجت عن ذلك الصحفى .

قال (محمد) :

ـ ولكننى لم أخالف القانون .

رمقه مدير الأمن بنظرة غاضبة ، تحمل شيئًا من الدهشة ، ثم قال فى صرامة :

ـ (محمد) .. لماذا فعلت هذا ؟

صمت (محمد) بضع لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ كانت لدى أسبابى :

سأله فى غضب :

ـ وما هى أسبابك ؟

عاد إلى صمته قليلًا ، قبل أن يجيب :

ـ لا يمكننى الإفصاح عنها فى الوقت الحالى .

تضاعف الغضب فى عينى مدير الأمن وملامحه ، وهو يتبادل نظرة قاسية صارمة مع (محمد) ، ثم قال فى حدة :

ـ اسمع يا (محمد) .. لو أنك شخص آخر ، غير العقيد (محمد عبد المنعم) الذى أعرفه ، والذى يتفانى طيلة عمره فى عمله وأداء واجبه ، لاتخذت معك إجراءات عنيفة وصارمة .. ولكننى حتى غير مستعد لهذا ، فى الوقت الحالى ، فنحن مشغولون بتأمين المؤتمر الاقتصادى المصرى الألمانى ، وهذا يستنزف كل جهودنا .. هيا .. اذهب الآن ، وسنناقش هذا فيما بعد .

اعتدل (محمد) فى وقفته ، وقال :

ـ أشكرك يا سيدى .

وغادر مكتب مدير الأمن ، ومبنى المديرية كله ، وانطلق بسيارته إلى منزل (أشرف) ، وهو يغمغم فى حنق :

ـ إذن فهذا أسلوب تعاملك يا حضرة ضابط المباحث .. أقسم أن تدفع الثمن غاليًا ، عندما أفرغ من هذا الأمر .

كان يقود سيارته بسرعة كبيرة نسبيًا ، مستغلًا خلو الطرقات ، فى هذه الساعة المتأخرة ، حتى بلغ منزل (أشرف) ، فصعد إليه فى سرعة ، ولم يكد يبلغ الشقة حتى هتف :

ـ تبًا لهذا !!

كانت الشقة مفتوحة ، وخالية من أى إنسان ، ومحتوياتها مبعثرة مقلوبة ..

وفى عصبية ، هتف (محمد) :

ـ أما من نهاية لكل هذا ؟.. ما الذى فعلوه بهذا الشاب أيضًا ؟.. ثم أين (جمال) ؟

وماذا أصابه ؟

ولم تكن هناك أجوبة ..

أية أجوبة ..

★ ★ ★

استعاد (جمال) وعيه فى بطء ، وبدأت عيناه فى تمييز ما حوله فى صعوبة ..

كان يرقد على أريكة واسعة ، مقيد المعصمين والقدمين ، وسط قاعة أشبه بمعمل اختبارات كامل ، يقف فى منتصفها رجل ..

بل شاب هادئ وسيم ..

إنه (أشرف) ..

مساعد الدكتور (عامر) ..

وهتف (جمال) فى توتر :

ـ إذن فهو أنت ؟!

مطَّ (أشرف) شفتيه ، وقال فى برود :

ـ نعم .. هو أنا .

ثم لوَّح بكفه ، مستطردًا :

ـ ولكننى لم أتصوَّر أنك ستتعرفنى بهذه السرعة .. لقد قرأت هذا فى عينيك ، وكان من الضرورى أن أتحرَّك بسرعة .

قال (جمال) فى حنق :

ـ لهذا هاجمتنى ، وأفقدتنى الوعى ؟

هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ لم يكن هناك حل آخر .. كشفك الأمر يفسد كل شىء .

أجابه (جمال) فى عصبية :

ـ كان من المستحيل أن أنسى عينيك .. صحيح أننى رأيتهما مرة واحدة فقط ، وللحظات معدودة ، عندما سقط المنظار فى حجرة الاستجواب بالقسم ، ولكنهما انحفرا فى ذاكرتى ، وأصبح نسيانهما مستحيلًا .

قال (أشرف) فى برود :

ـ أعتقد أنك ستندم على هذا .

أدرك (جمال) ما يعنيه هذا ، ولكن فضوله الصحفى هزم خوفه ، وجعله يسأل :

ـ ولكن كيف تفعل هذا ؟

ابتسم (أشرف) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك فهم هذا .

استفزَّت العبارة (جمال) ، فقال :

ـ الأمر يتم بمساعدة تلك الفجوة ، بيننا وبين البُعد الخامس .. أليس كذلك ؟

انعقد حاجبا (أشرف) فى شدة ، ثم لم يلبث أن رفعهما ، وعاد يخفضهما ، قبل أن يقول فى شىء من العصبية :

ـ يبدو أن الدكتور (عامر) أخبرك بالكثير ، قبل أن ألقيه من نافذة حجرتك .

قال (جمال) فى سرعة :

ـ أكثر مما تتصوَّر .

لم يكد ينطقها ، حتى شعر بالندم ، وخاصة مع تلك النظرة الغاضبة ، المفعمة بالتوتر والمقت ، التى أطلّت من عينى (أشرف) ، قبل أن يقول :

ـ هكذا ؟!

وتراجع خطوتين ، ليجلس فوق مقعد صغير ، وهو يتابع :

ـ الحقيقة أنه لم يكن يتوقَّع هذا .. كانت كل الأبحاث التى نجريها تتحرَّك فى اتجاه واحد محدود ، ألا وهو الاتصالات الفضائية بعيدة المدى ، وعندما نجح فى تكوين وبث تلك الذبذبة الخاصة ، التى توصَّل إليها ، كانت المفاجأة مذهلة .

قال (جمال) :

ـ فجوة البُعد الخامس .

ابتسم (أشرف) ، وقال :

ـ بل البُعد الخامس نفسه .. المدى الذى يمكن أن تتحرَّك فيه المادة ، وهى فى حالة أشبه بالطاقة .. الطاقة المادية ، أو مادة اللا مادة .. كشف جديد مذهل ، لم يخطر ببال أعظم عباقرة الفيزياء فى الدنيا .. العالم الخفى ، المحيط بالعالم الذى نحيا فيه ، ويتخلله ، ويتغلغل فى أعماقه ..

وتوقف ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع :

ـ ولم يصدّق الدكتور (عامر) نفسه .. لقد توصّل إلى كشف القرن .. إلى الذبذبة الكافية لتغيير وجه العالم أجمع بضربة واحدة .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

ـ إلى أعظم سلاح حربى فى التاريخ .

قال (جمال) :

ـ مستحيل !.. الدكتور (عامر) كان رجلًا محبًا للسلام ، ويكره الحروب والقتل والدمار .

رفع (أشرف) سبّابته أمام وجهه ، وقال :

ـ وهذا أكبر عيوبه .. كان يتصوّر أن نتائج الأبحاث لابد أن تقتصر على الأغراض السلمية ، على الرغم من أن الأغراض الحربية هى وحدها التى تحقّق المجد والثراء .. سلاح حربى جديد واحد ، يكفى لتحويل مبتكره من شحاذ إلى ملياردير ، فى غمضة عين .

قال (جمال) فى ازدراء :

ـ ألهذا فعلت ما فعلت ؟!

لوّح بكفه ، وقال :

ـ يمكنك أن تقول : إننى الرابح الوحيد فى اللعبة كلها ، ومنذ البداية ؛ فالدول العظمى تتابع دائمًا الموهوبين والعباقرة ، من أبناء الدول الأخرى ، وعندما لاحظ المسئولون فى أكبر دولة ، أن الدكتور (عامر) يتقدّم بأبحاثه إلى مدى بعيد ، قرّروا التجسّس على أبحاثه ، ومتابعتها أوّلًا فأولًا .. ولم يكن من الممكن أن يحدث هذا ، إلا عن طريق شخص وثيق الصلة به ، وبأبحاثه ودراساته .

قال (جمال) :

ـ وأفضل شخص فى هذا المضمار ، هو أنت .. أليس كذلك ؟

ابتسم قائلًا :

ـ بالطبع .. من أفضل من المساعد الوحيد للدكتور (عامر) .. لقد جندونى للعمل معهم ، مقابل راتب ضخم ، وكان هذا يكفينى ، حتى توصّل الدكتور (عامر) إلى ذلك الكشف المذهل .. عندئذ أدركت أننى أمام فرصة العمر ، فإما أن أحسن استغلالها ، أو أصبح أغبى رجل على وجه الأرض .

قال (جمال) فى سخرية :

ـ وهكذا أصبحت أكثر رجال العالم شرًا .

هزّ (أشرف) كتفيه ، وقال :

ـ هذا يتوقّف على الزاوية ، التى تنظر منها إلى الأمور .. ولكن من موقعى أنا ، وجدت أمامى فجوة مدهشة ، للعبور إلى عالم القوة .. فبوساطة زى خاص ، صنعه أيضًا الدكتور (عامر) ، يمكننى استخدام جهاز الذبذبة الخاصة ، للعبور من الحالة المادية إلى حالة شبه الطاقة ، فتنهار أمامى كل الموانع والعقبات .. أجتاز أكثر الحواجز قوة ، وأشدها متانة ، كما يخترق خنجر حاد جدارًا من الماء .. ويمكننى أن أختفى تمامًا ، أو أتجسّد ، أو أضع نفسى فى أية درجة بين الحالتين .. إنها قوة خرافية ، ونشوة لا يشعر بها إلا من اختبرها وذاقها .

ثم انقلبت سحنته ، وهو يستطرد :

ـ ولكن كانت أمامى عقبة واحدة ، للانفراد بهذه القوة .. الدكتور (عامر) نفسه .

قال (جمال) :

ـ ولهذا قتلته .

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ لم يكن هناك حل بديل .. لقد أجريت اتصالًا مع هؤلاء المسئولين ، فى الدولة العظمى ، وأبلغتهم ما لدى ، وعرضوا علىّ مليارًا من الدولارات ؛ ليحصلوا على المعادلات والاختراع ، ولكننى رفضت ، وشرحت لهم أن أحدًا غيرى لن يتمتع بهذه القوة قط ، وخاصة بعد أن دمّرت كل المعادلات ، ونتائج الأبحاث ، وقتلت الدكتور (عامر) .

وبرقت عيناه على نحو جنونى ، وهو يضيف :

ـ أنا صاحب القوة المطلقة .. أنا (سوبرمان) العصر الحديث ، والكل يطلب خدماتى ، ويدفع الملايين مقابلها .

أدرك (جمال) أن هذه القوة قد أصابت الشاب بالغرور ، وبشىء من الجنون ، فقال محاولًا إنقاذ نفسه من براثنه :

ـ فاتك أمر بالغ الأهمية .. إننى لم آت إلى منزلك سرًّا .. العقيد (محمد) أيضًا يعرف أننى هنا ، و ...

قاطعته ضحكة عالية ساخرة ، أطلقها (أشرف) ، قبل أن يقول :

ـ لا تعتمد كثيرًا على هذا ، فلسنا فى منزلى .. لقد أفقدتك الوعى ، ونقلتك إلى هذه الفيلا المنعزلة ، التى ابتعتها بثمن أوّل

عملية سأقوم بها ، عبر البُعد الخامس .. أما منزلى ، فقد قلبت محتوياته ، وبعثرتها ، بحيث سيتصوّر زميل كفاحك أننى وأنت قد تعرّضنا لهجوم مدمّر ، وسيكون من السهل بعدها تبرير مصرعك .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو يستدرك :

ـ أو بمعنى أدق .. اختفائك التام .

سأله (جمال) فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه وهو يشير إلى دولاب جانبى :

ـ أعنى أنك ستتذوّق قوة العبور إلى البُعد الخامس .. ولكن لمرة واحدة وأخيرة .

ونهض يفتح الدولاب ، الذى بدا داخله ذلك الزى الأسود المخيف ، فجذب منه الشىء الشبيه باسطوانات الغوص ، وهو يقول :

ـ هذا هو جهاز الانتقال .. جذبة صغيرة لتلك الذراع الدقيقة ، ويغوص جسدك فى البُعد الخامس ، أو يعود منه .. ولكن ماذا لو ذهب دون أن يعود ؟

سرت قشعريرة باردة فى جسد (جمال) ، وقد أدرك ما يعنيه (أشرف) ، الذى تابع ، وهو يلوّح بيده اليسرى فى الهواء ، ويحمل جهاز الانتقال باليمنى ، متوجّهًا به إليه :

ـ سيتبعثر جسدك فى الفراغ ، ويبقى إلى الأبد ضائعًا ، لا هو بالمادة ، ولا بالطاقة .. إنه أبشع ضياع فى الكون ، لأنك ستشعر ، وتتألم ، وتخاف ، ولكن دون أن تملك وسيلة للعودة .

ووضع الجهاز إلى جوار (جمال) ، مضيفًا فى شراسة عجيبة :

ـ هيا .. قل وداعًا لهذا العالم ..

ولكن (جمال) لم يكن مستعدًا للموت ..

ولا للاستسلام ..

وبكل ما يملأ عروقه من خوف ، وغضب ، ورغبة فى البقاء ، دفع قدميه فى صدر (أشرف) ، وهو يهتف :

ـ لا .. ليس الآن .

كانت الضربة من القوة ، حتى أنها ألقت (أشرف) بعيدًا ، ولكنه كان من الصلابة ، بحيث استعاد سيطرته على نفسه فى سرعة ، وصاح فى غضب :

ـ أيها الحقير .. لن تفلت منى أبدًا .

واختطف خنجره ، وهوى به على (جمال) ، الذى تراجع بسرعة ، ورفع قدميه فى حركة آلية غريزية ، ليصدّ الهجوم ..

وكان هذا من حسن حظه ..

لقد أصاب الخنجر قيود قدميه ، فمزقها ، مع جزء من سرواله ، وجرح كاحله ، فصاح (أشرف) فى غضب ، وهو ينقض عليه مرة أخرى :

ـ لن يواتيك الحظ إلى الأبد .

ولكن (جمال) انطلق يعدو من امامه هذه المرة ، واتجه مباشرة نحو النافذة نصف المفتوحة ، ووثب يرتطم بها ، ويحطمها ، ويقفز عبرها ، و ...

وكانت المفاجأة !!..

إنه لم يكن داخل الطابق الأرضى ، كما كان يتوقع ، وإنما فى الطابق العلوى ..

ومن ارتفاع أربعة أمتار ، سقط (جمال) ، وارتطم بالأرض ، وتدحرج فوقها فى عنف ، ثم هبَّ واقفًا على قدميه ، وانطلق يعدو مبتعدًا ، بكل ما يملك من قوة ، متجاهلًا كل الخدوش والسحجات والكدمات ، التى ملأت جسده ، ومن خلفه (أشرف) يصرخ :

ـ لن تذهب بعيدًا .. سأظفر بك حتمًا ..

وكان (أشرف) يعلم أنه على حق ، فمع رجل يتنقَّل بين الأبعاد .. أين يمكنك أن تختبئ ؟!

ودون أن يغرق فى هذه الفكرة ، ظلَّ (جمال) يعدو ويعدو ، وهو يجهل حتى إلى أين تقوده قدماه ، حتى لاح له الطريق الأسفلتى من بعيد ، وبلغه بسرعة ، ورأى السيارات تقطعه جيئة وذهابًا ، فصرخ مستنجدًا ..

ـ النجدة .. النجدة ..

ومن بين السيارات المنطلقة بأقصى سرعتها ، توقفت إلى جواره سيارة صغيرة ، حدَّق فيه صاحبها بدهشة ، قبل أن يهتف :

ـ من فعل بك هذا ؟

أجابه (جمال) فى سرعة :

ـ بعض اللصوص هاجمونى ، وقيَّدونى ، وحاولوا قتلى ، ولكننى هربت منهم .. أنا صحفى فى جريدة (الأهرام) .. أنقذنى .. أرجوك .

عاونه صاحب السيارة بسرعة على الركوب ، وانطلق بها مبتعدًا ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن الصحافة هى مهنة المتاعب ، ولكننا نكن لها كل الاحترام .. اكتب هذا عن لسانى ، فى التحقيق الذى ستصف فيه ما حدث لك .

قال (جمال) :

ـ بالطبع .. اذكر لى اسمك وعنوانك ، وأعطنى صورتك .

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى الرجل ، وهو يقول :

ـ وهل ستذكر أننى أنقذتك ؟

قال فى ضجر :

ـ بالتأكيد ، وسأسبق اسمك بلقب (البطل) .

ظلَّ الحديث يدور على هذا المنوال ، حتى قال (جمال) فى توتر :

ـ قل لى : أليس من الأفضل أن تحلّ قيودى أوَّلًا؟

أوقف الرجل السيارة على جانب الطريق على الفور ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. كيف نسيت هذا ؟

وحلَّ قيود (جمال) ، ثم سأله مبتسمًا :

ـ والآن ، أين ستذهب بالضبط ؟

وكان هذا هو السؤال ذاته ، الذى طرحه (جمال) على نفسه ، منذ دقائق معدودة ..

أين يذهب بالضبط ؟!..

ودون وعى ، وجد نفسه يجيب :

ـ إلى الجريدة .

انطلق الرجل بالسيارة ، حتى توقّف فى شارع (الجلاء) ، أمام مبنى (الأهرام) ، وقال :

ـ لاتنس ذكر الاسم كاملًا .

لوّح له (جمال) بكفه ، هاتفًا :

ـ بالطبع .. بالطبع .

وأسرع يدلف إلى المبنى ، واستقلّ المصعد إلى مكتبه ، ولم يكد حارس المكتب يراه ، حتى هتف فى دهشة :

ـ أستاذ (جمال) ؟!.. ما الذى أتى بك فى هذه الساعة ؟!.. إنها الثانية صباحًا تقريبًا !؟.. ثم من فعل بك هذا ؟

لوّح (جمال) بكفه ، قائلًا :

ـ أعفنى من أسئلتك يا (مصطفى) .. أرجوك ..

ودخل إلى حجرة المكتب ، وألقى جسده فوق مقعده ، وهو يغمغم :

ـ لقد نالنى ما يكفينى .

اعتمد بمرفقيه على سطح المكتب ، وأسند وجهه على راحتيه ، واعتدل بجسده كله ، و ...

وارتطمت قدمه بجسم صغير ..

وانحنى (جمال) يلتقط ذلك الجسم الصغير ، ويتطلّع إليه فى دهشة ..

كان ذلك المنظار الطبى ، الذى كان يرتديه الدكتور (عامر) ، عندما أتى لزيارته ..

وفى حيرة ، تمتم (جمال) :

ـ عجبًا !.. كيف نسيه الجميع هنا ؟

ورفعه ليلقى نظرة عليه ، قبل أن يضعه فى درج مكتبه ، ولكن لم تكد عدستا المنظار تقعان فى مستوى نظره ، حتى أطلق صيحة دهشة قوية ..

لقد كان ما يراه ، عبر عدستى المنظار مذهلًا ..

مذهلًا بحق .

★ ★ ★

٨ ـ العالم الآخر ..

نفث (محمد) دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يجلس فى حجرته بقسم الشرطة ، ويقول لأحد زملائه فى توتر :

ـ ما من أدنى أثر .. الشقة مفتوحة ، ومحتوياتها مبعثرة ، ولا يوجد أدنى أثر لصاحبها ، أو للصحفى .

سأله زميله :

ـ لماذا تبدو شديد الاهتمام بأمر هذا الصحفى ؟.. نصفنا هنا يؤكد أنه قاتل الدكتور (عامر) ، فكيف خانتك فراستك الشهيرة هذه المرة ؟

أجابه (محمد) فى حدة :

ـ إنه ليس القاتل ، والأمر لا يحتاج إلى الفراسة .

سأله زميله فى حيرة :

ـ لماذا تبدو واثقًا هكذا ؟

أجابه فى عنف :

ـ لأننى رأيت بنفسى .

تطلّع إليه زميله فى تساؤل ، وقال :

ـ رأيت ماذا ؟

صمت (محمد) طويلًا ، وهو معقود الحاجبين ، شارد البصر ، قبل أن يقول :

ـ ما يكفى .

همّ زميله بإلقاء سؤال آخر ، عندما ارتفع فجأة رنين الهاتف ، فانقضّ عليه العقيد (محمد) ، وانتزع سمّاعته فى لهفة ، وهو يقول :

ـ هنا العقيد (محمد عبد المنعم) .. من المتحدّث ؟

وكاد يقفز من مقعده ، عندما أتاه صوت (جمال) ، قائلًا :

ـ إنه أنا .. (جمال) .

هتف (محمد) :

ـ أين أنت ؟.. إننى أبحث عنك منذ ذهبت إلى شقة (أشرف) هذا .

أجابه (جمال) فى سرعة :

ـ (أشرف) هو القاتل .. لقد حاول خداعك ببعثرة محتويات شقته .. إنه القاتل الذى يتنقّل فى البُعد الخامس للمادة .

ثم استطرد فى لهفة :

ـ ولكن هناك أمر آخر بالغ الخطورة ، ينبغى أن تعرفه .. لقد عثرت فى مكتبى هنا على منظار الدكتور (عامر) ، وهو ليس منظارًا عاديًا .. إننى لم أكد أضعه على عينى ، حتى رأيت أمامى عالمًا آخر .. هذا المنظار يفتح أمامك باب البُعد الخامس .. إنه الوسيلة الوحيدة لرؤية ذلك القاتل عندما يختفى .

سأله (محمد) :

ـ ومن أين تتحدّث ؟

أتاه صوته ، قائلًا :

ـ من مكتبى بالجريدة .. إننى أحتفظ بالمنظار هنا ، فى درج مغلق .. حاول أن تأتى ، وسأريك عبره ما يذهلك .

قال (محمد) فى حماس :

ـ هل تعتقد أنه سيساعدنا فى الإيقاع بالقاتل ؟

هتف (جمال) :

ـ بالتأكيد .. و (أشرف) يجهل أننا نمتلكه ، مما يمنحنا فرصة نادرة ، فى التعامل معه ، والـ ...

بتر عبارته فجأة ، ليهتف فى ارتياع :

ـ ها هو ذا .. ربّاه .

ثم صدرت جلبة عنيفة، ونقلت السماعة صرخات رعب، جعلت (محمد) يهتف:

ـ (جمال) .. ماذا حدث .. ماذا حدث يا (جمال) ؟!

ثم ألقى سماعة الهاتف ، واختطف مسدسه ، وانطلق يعدو مغادرًا الحجرة ، وزميله يقول فى دهشة وقلق :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

ولكن (محمد) لم يجب ..

لم يكن لديه الوقت لهذا ..

لقد غادر القسم كالصاروخ ، وانطلق يعدو عبر الشارع ، محاولًا بلوغ مبنى الجريدة ، قبل أن يصاب (جمال) بمكروه ..

ولكن أنفاسه راحت تتردّد فى صعوبة ، وصدره يعلو ويهبط فى سرعة ، حتى صرخ فى غضب :

ـ اللعنة على هذه السجائر .. لقد أفقدتنى لياقتى تمامًا .

كان يلهث فى شدة ، قبل أن يقطع العشرين مترًا ، التى تفصل مكتبه عن مبنى الجريدة ، ولم يكد يبلغ بابها ، حتى ارتفعت صرخة عالية ، تردّدت فى هواء المنطقة .

وصرخ (محمد) :

ـ لا .. ليس (جمال) .

ولم يستطع انتظار المصعد ، فراح يصعد فى درجات السلم عدوًا ، حتى بلغ الطابق الرابع ، وقد تقطّعت أنفاسه تمامًا ، وانتفض جسده فى ارتياع ، عندما رأى حارس الطابق جثة هامدة فى الممر ، ولكنه دفع نفسه دفعًا ، بكل ما تبقّى فى صدره من أنفاس تتردّد ، حتى بلغ حجرة (جمال) ، فدفع بابها ، وهو يهتف :

ـ (جمال) .. أين أنت ؟

وهوى قلبه بين قدميه ..

لقد رأى (جمال) ملقى فى منتصف الحجرة ، وسط بركة من الدماء ، فاندفع نحوه ، وهتف :

ـ مستحيل !.. مستحيل أن يكون قد فعلها معك .

رفعه بسرعة ، وخفق قلبه فى مرارة ، عندما رأى عينيه الجامدتين ، الخاليتين من بريق الحياة ، فصرخ :

ـ لقد فعلها .. فعلها ذلك الوغد ..

وردّدت جدران الجريدة كلها صرخاته ، وكأنها تشاركه حزنه ومرارته .. أو توبّن أحد أبنائها ..

الصحفى (جمال سليمان) ..

سابقًا ..

★ ★ ★

أشرقت الشمس بعد بضع ساعات ، وصعدت فى بطء إلى السماء ، وتسلّلت بعض خيوط أشعتها عبر نافذة حجرة مكتب العقيد (محمد) ، لتسقط على وجهه الصامت الساكن الحزين ، وعينيه الشاردتين المفعمتين بالمرارة ، واللتين لم تتحرّكا قيد أنملة ، ما يزيد على الساعة ، حتى دلف أحد زملائه إلى الحجرة ، وقال فى إشفاق :

ـ (محمد) .. إنك تقتل نفسك بهذا .

زفر (محمد) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتابع زميله :

ـ الأمر لا يستحق كل هذا .. إنه ليس أوّل صديق تفقده .. هل نسيت (نادر) ؟

صمت (محمد) بعض الوقت ، ثم قال :

ـ هناك قاتل مطلق السراح .

نطقها فى صرامة مخيفة ، تمتزج بشىء من المقت ، جعل زميله يحدّق فى وجهه لحظة بدهشة بالغة ، ثم يتنحنح متمتمًا :

ـ إنه ليس أوّل القتلة ، الذين يرتكبون جريمتهم ، وينجحون فى الفرار ، ولكننا فى المعتاد نوقع بهم ، بعد فترات طالت أم قصرت ، و ...

قاطعه (محمد) بنفس الصرامة الغاضبة :

ـ إلا هذا ..

تطلّع إليه زميله لحظات أخرى فى دهشة وحيرة ، ثم قال :

ـ كل قاتل ، مهما بلغ من الدقة والحنكة والذكاء ، لا بد له من الوقوع فى خطإ ، ولو صغير ، وعندئذ ..

هبّ (محمد) من مقعده بغتة ، وهو يقاطعه للمرة الثانية ، قائلًا :

ـ هذا بالذات لا يمكنكم الإمساك به .. إنه يتحرّك حيث لا تمسك به أيديكم قط .

حاول زميله أن يبتسم فى ارتباك ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟!.. أهو شبح أم عفريت ؟

أجابه (محمد) فى غلظة :

ـ مزيج من هذا وذاك .

ارتبك زميله أكثر وأكثر ، وأخرج علبة سجائره ، وقدّم إليه سيجارة ، قائلًا :

ـ ما رأيك فى تدخين سيجارة أمريكية الصنع ، ومناقشة هذا الأمر فى هدوء ؟

هتف (محمد) فى حدة :

ـ كلّا .

ثم استطرد فى عصبية :

ـ لقد أقسمت ألا أمس سيجارة قط ، ما بقى لى من العمر ، ولست أدرى كيف مارست هذه الحماقة لعدة سنوات .

واندفع يغادر المكان كله ، وقفز فى سيارته ، وانطلق بها مبتعدًا ، وهو يقاوم رغبة عارمة فى البكاء ، يغصّ بها حلقه ، وقطع شوارع (القاهرة) كلها تقريبًا ، حتى وصل إلى منطقة (الأهرامات) ، فأوقف سيارته ، وصرخ بكل الغضب الكامن فى أعماقه :

ـ لمـاذا ؟

ودفن وجهه بين كفيه ، مستطردًا :

ـ لماذا يموت بريئان ، من أجل شيطان قذر كهذا ؟.. لماذا ؟

قالها ولاذ بالصمت طويلًا ، وهو يصدر صوتًا أشبه بالنحيب ، يفصح عن مكنون صدره ، ثم لم يلبث أن دسّ يده فى جيبه ، وأخرج منظارًا طبيًا عادى المظهر ، تطلّع به فى أسى ، وهو يقول :

ـ لقد تركه .. ترك المنظار الذى عثرت عليه يا (جمال) .. ربما لأنه يجهل وجوده بين يديك .. أو لأنه قدره .. أو قدرى .

رفع المنظار ، ووضعه فوق عينيه ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

لقد اختفى المشهد الطبيعى الذى أمامه ، وحل محله مشهد آخر ، له نفس التفاصيل ، ولكن بألوان وظلال عجيبة ..

كان يبدو أشبه بمشهد ملوَّن ، اختلَّت تفاصيله ، وامتزجت ألوانه على نحو عجيب ..

الأهرامات الثلاثة صارت زرقاء اللون ، والسماء برتقالية ، والرمال خضراء ، والناس الذين يتحركون فى كل مكان أصبحوا مجرَّد ظلال حمراء داكنة ...

وبسرعة ، رفع (محمد) المنظار عن عينيه ، وهو يغمغم :

ـ إذن فهذه هى الوسيلة الوحيدة لرؤيتك ، أيها القاتل الوغد ..

ولكن أين يمكن العثور عليك .. فى أية بقعة من العالم .. ربما كنت هنا الآن ، تراقبنى وأنا أفحص المنظار .. كلَّا .. هذا مستحيل .. كنت سأراك عبر المنظار نفسه ، لو كنت هنا .. لست أدرى كيف ، ولكن (جمال) رحمه الله قال هذا ، وهو يفهم ما يقول .. هو وحده كان يفهم هذه الأمور المعقَّدة .

أعادت إليه ذكرى (جمال) مشاعر الحزن والأسى ، فقال فى مرارة :

ـ لن تذهب تضحيتك سدى يا (جمال) .. أقسم أن أنتقم لك ، ولكل من أساء إليهم هذا القاتل الحقير .. ولكن أين أجده ؟.. أين أجد ذلك الحقير ؟

وراح يعتصر ذهنه ، ويسترجع كل التفاصيل والأحداث ، فى محاولة للعثور على طرف خيط ، يقوده إلى (أشرف) ..

وفجأة ، برقت عيناه فى لهفة ، واعتدل فى جلسته ، وهتف :

ـ نعم .. هذا هو طرف الخيط ، بل الخيط نفسه .. لقد عرفت أين أجد ذلك الوغد ؟

وأدار محرِّك السيارة ، وانطلق بها كالصاروخ ، وقلبه يخفق فى عنف ، ويستعد للجولة القادمة مع شيطان البُعد الخامس .. الجولة الأخيرة .

★ ★ ★

٩ ـ فى سبيل الواجب ..

احتشد جيش من الصحفيين ، أمام إحدى قاعات فندق من فنادق النجوم الخمسة ، حملت لافتة بعنوان : « المؤتمر الاقتصادى المصرى الألمانى » ، وبدا من الواضح أن الجميع ينتظرون المؤتمر الصحفى ، الذى سينعقد بعد الجلسة الختامية للمؤتمر الاقتصادى ، والذى سيلقى فيه المستشار الألمانى (هيلموت كول) بيانًا حول نتائج المؤتمر ، ويصاحبه فى هذا رئيس الوزراء المصرى ..

ونشط رجال الأمن حول المكان ، لحماية رئيس الوزراء والمستشار الألمانى ، ومراقبة كل من يقترب من قاعة المؤتمر الصحفى ، أو يحوم حولها ..

ووسط كل هذا ، مال أحد الصحفيين على زميله ، وقال :

ـ يبدو أننا من سعداء الحظ ، الذين سمحوا لهم بالاقتراب .

ابتسم زميله ، وقال :

ـ ليس للحظ أى شأن هنا .. أنت تعلم أننا هنا بدعوات خاصة ، وبعد تحريات واسعة ، واستجوابات لا حصر لها .

قال الأوّل فى حماس :

ـ هذا أمر طبيعى .. إنه مؤتمر بالغ الأهمية ، ويقولون إن نتائجه ستؤثر إما إيجابًا أو سلبًا ، فى المسار الاقتصادى لـ (مصر) .

سأله زميله :

ـ هل تعتقد أن المستشار الألمانى سيلقى بيانًا لصالحنا ؟

لوّح بكفه ، وقال :

ـ كل الدلائل تشير إلى هذا ؟

ابتسم زميله ، وقال فى ارتياح :

ـ عظيم .. سيثير هذا حفيظة عدد كبير من الدول ، التى ليس من مصلحتها أن نجتاز أزمتنا الاقتصادية .

ضحك الأوّل ، وقال :

ـ بالتأكيد ، فهذا يبعدنا عن قبضتها ، ويجعل منا قوة لا يستهان بها ، فى منطقة الشرق الأوسط كلها .. إنهم مستعدون لفعل أى شىء فى العالم ، لمنعنا من بلوغ هذا .

همّ زميله بقول شىء ما ، إلا أنه توقّف بغتة ، وعقد حاجبيه ، قائلًا :

ـ عجبًا !.. هذا الرجل يبدو لى مألوفًا ، على الرغم من مظهره .

التفت الأوّل إلى حيث يتطلّع زميله ، ووقع بصره على رجل متين البنيان ، عريض الفك والمنكبين ، يرتدى حلة عادية ، ولكنها فى حالة مزرية ، ورباط عنق لم يبلغ نقطة انعقاده ، وقد نمت لحيته ، وزاغ بصره ، على نحو جعله يبدو مريبًا ، فاستدارت إليه عيون الجميع ، وخاصة رجال الأمن ، الذي أحاطوا به ، وراحوا يرمقونه فى شك ، وأيديهم متحفزة ، على أزندة مسدساتهم ..

أما الصحفى ، فقال فى دهشة :

ـ ربّاه !.. أنا أعرفه بالفعل .. إنه ضابط مباحث .. لقد رأيته فى مبنى الجريدة ، صباح أمس ، بعد انتحار ذلك العالم الفيزيائى .

هتف الثانى فى دهشة :

ـ آه .. عرفته .. إنه العقيد (محمد عبد المنعم) .. ولكن لماذا يبدو فى هذه الهيئة ؟

ومع قوله هذا ، كان رجال الأمن قد حاصروا (محمد) ، واحتك به أحدهم ، قائلًا فى خشونة :

ـ ماذا تريد من هذا المكان ؟

أجابه (محمد) فى صرامة ، وهو يبرز بطاقته :

ـ أنا العقيد (محمد عبد المنعم) .. من المباحث الجنائية .

قرأ رجال الأمن بطاقته أكثر من مرة ، وفحصوها ، ومحّصوها ، ثم أعادوها إليه ، وقال أحدهم :

ـ معذرة يا سيادة العقيد ، ولكنك تعرف إجراءات الأمن هنا .

غمغم (محمد) :

ـ نعم .. أعرفها .

ثم أزاحهم عن طريقه ، وأخرج من جيبه منظار الدكتور (عامر) ، وارتداه ..

ومرة أخرى ، بدت له الصورة عجيبة ..

كل شىء اصطبغ بدرجات اللون الوردى ، فيما عدا البشر ، الذين صاروا مجرّد ظلال حمراء داكنة ..

ولم يرفع رجال الأمن أعينهم عن (محمد) .

صحيح أنهم تأكّدوا من شخصيته ، ولكن هيئته ونظراته ، جعلتهم يتابعونه فى شك حذر ..

ثم ظهر المستشار الألمانى ، ورئيس الوزراء ..

وتأهّب كل رجال الأمن ..

وكذلك (محمد) ..

كان قد جمع كل ما لديه ، ليصل إلى هنا ..

الكلمات التى نطقت بها (محاسن) عند إصابتها ..

وحديثه مع مدير الأمن ..

وغريزته الخاصة ، التى نمت عبر عشرين عامًا من الخبرة ..

لقد استنتج أن هذا المكان ، هو الهدف القادم لرجل البُعد الخامس ..

استنتج هذا ، فهرع إلى المكان على الفور ..

كان كل أمله ـ فى هذه اللحظة ـ أن يظفر بالقاتل ..

ومهما كان الثمن ..

هكذا هو ، منذ التحق بخدمة الشرطة ..

يلبى نداء الواجب ، دون التفكير فى العواقب ..

فقط الواجب ..

وفى اهتمام وانتباه كاملين ، راح يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن القاتل ..

لم يكن يدرى حتى كيف سيراه ..

ولا كيف سيتعرّفه ..

كل ما كان يثق به ، هو أنه سيعرف كل شىء ، فور رؤيته ..

وتوترت أعصابه مع الترقّب والانتظار ..

والتهبت فى شدة ..

وخلف منصة المؤتمر الرئيسية ، كان المستشار الألمانى يلقى كلمته ، وإلى جواره رئيس الوزراء المصرى ، ولكن (محمد) لم يكن يستطيع تمييز الوجوه ..

إنه يرى فقط ظلالًا حمراء داكنة ، وسط أرضية وردية باهتة ..

ولكن فجأة ، اخترق الصورة ظل أزرق ..

ظل رجل يرتدى ثيابًا أشبه بالغوّاصين ، ويتقدّم نحو المنصة ، التى يجلس خلفها المستشار الألمانى ..

وتحفّزت كل عضلة فى جسد (محمد) ، وتلاحقت أنفاسه بشدة ، ثم خلع المنظار فى سرعة ، فوجد كل شىء أمامه عاديًا ، ولا وجود لصاحب الظل الأزرق ، فأعاد المنظار إلى عينيه ، ورأى صاحب الظل مرة أخرى ..

رآه يخترق كل ما يعترض طريقه ..

الظلال الحمراء الداكنة ..

والظلال الوردية ..

كل شىء ..

وكان (محمد) يعلم ما سيحدث بعد قليل ..

سيتجسّد القاتل فجأة ، أمام أعين الجميع ، وعلى بعد سنتيمترات من المستشار الألمانى ، وفى غمرة الدهشة والذهول والمفاجأة ، يطعن المستشار ، أو يطلق عليه النار ، ثم يعود للاختفاء ، ويتلاشى فى البُعد الخامس ، قبل أن يضيع أثر المفاجأة ، أو يطلق أحد رجال الأمن رصاصة واحدة ..

وعبر المنظار الخاص ، أدرك (محمد) أنه على حق ..

لقد تحرّك الظل الأزرق ، حتى صار خلف المستشار الألمانى تمامًا ، ثم بدأ لونه يتحوّل تدريجيًا إلى البنفسجى الهادئ..

ولم ينتظر (محمد) إتمام التحوّل ..

لقد انتزع مسدسه فجأة ، ودفع من حوله جانبًا ، ثم انطلق يعدو نحو المنصة ..

وتراجع بعض الصحفيين فى ذعر ، وصرخ البعض الآخر ، وانتزع رجال الأمن مسدساتهم بدورهم ، وهم يلومون أنفسهم ؛ لأنهم لم يتخذوا الإجراء المناسب فى الوقت المناسب ، ما دام الشك قد راودهم بشأنه منذ البداية ..

وواصل القاتل تجسّده ..

وانطلقت شهقات العديدين ، وهم يشاهدون الظل الشفاف خلف المستشار الألمانى ، وهو يتحوّل إلى جسد بشرى ، فى نفس الوقت الذى يعدو فيه (محمد) نحو المنصة ، وهو يصوّب مسدسه إلى حيث يجلس المستشار ، ورجال الأمن ينطلقون خلفه ، ومسدساتهم مصوّبة إليه ..

وأطلق رجال الأمن رصاصاتهم ، وشعر (محمد) برصاصة تخترق ذراعه ، وأخرى تغوص فى ساقه ، وثالثة تؤلم ظهره ..

ولكنه لم يتوقّف ..

وفى حزم ، صوّب هو أيضًا مسدسه ..

وكان (أشرف) يرفع مسدسه ، ويهمّ بإطلاق النار على المستشار فى ظهره مباشرة ..

وأطلق (محمد) رصاصته ..

وأطلق رجال الأمن رصاصات أخرى ..

وأصابت كل الرصاصات أهدافها ..

رصاصات رجال الأمن استقرَّت فى كتفى (محمد) وساقيه ومعدته .. ورصاصته اخترقت جبهة (أشرف) ، من منتصفها بالضبط ..

وسقط الاثنان فى آن واحد ..

(أشرف) و (محمد) ..

وتعلَّقت أنظار الجميع بالأوَّل فى ذهول ، عندما أسقطته رصاصة الثانى ، قبل أن يطلق رصاصته هو على قلب المستشار الألمانى ..

تعلَّقت به الأنظار ؛ بسبب تلك الظاهرة المذهلة ، التى واكبت مصرعه ..

لقد وثب جسده إلى الخلف ، وارتطم بالجدار ، ثم تلاشى نصفه العلوى بسرعة مذهلة ، وغاص فى قلب الجدار ، فى حين بقى نصفه السفلى متجسِّدًا لحظات ، خفقت خلالها كل القلوب فى ذهول للمشهد الرهيب ..

مشهد رجل ، نصفه فى عالمنا ، ونصفه الآخر فى البُعد الخامس ..

ثم تلاشى نصفه المنظور تدريجيًا ، حتى اختفى تمامًا ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، استدارت الأعين كلها إلى (محمد) ، وهتف هاتف ..

ـ إنه ليس قاتلا ، لقد كان ينقذ المستشار الألمانى .

وصاح آخر :

ـ ماذا تنتظرون ؟!.. استدعوا سيارة إسعاف .

وقال ثالث :

ـ إنه بطل .. كيف يفعل به رجال الأمن هذا ؟

وسمع (محمد) كل هذه العبارات ، وهو ينزف من جروحه دماء الحياة ، حتى آخر قطرة ..

سمعها ، ولم يبال بها كثيرًا ..

إنه لم يكن ينتظر عبارات الإعجاب والثناء ، عندما أطلق النار على القاتل ..

لقد كان يفعل نفس ما يفعله ، منذ التحق بالشرطة ..

كان يؤدى واجبه ..

وفى سبيل هذا الواجب ، كان عليه أن يطارد القاتل ، ويظفر به ، مهما كان الثمن ، وحيثما كان القاتل ..

حتى ولو كان فى آخر الدنيا ..

أو حتى فى بُعد آخر ..

بُعد خامس .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ البلوتونيوم .
٢ ـ ابن يونس .
٣ ـ النرويج .
٤ ـ الخيار .
٥ ـ الكنغر .
٦ ـ المجرة .
٧ ـ أروى بنت عبد المطلب .
٨ ـ جرمان .
٩ ـ تقطير .
١٠ ـ الخوذة .
١١ ـ جيمس وات .
١٢ ـ كرة السلة .
١٣ ـ قشتالة .
١٤ ـ بديع الزمان الهمذانى .
١٥ ـ الرصاص .
١٦ ـ القشريات .
١٧ ـ الهضبة .
١٨ ـ أنس بن مالك .
١٩ ـ حب العزيز .
٢٠ ـ ديترويت .

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

صفحة

- الغـراب (قصة قصيرة) ٥
- اختبر معلوماتك ١٠

عملية صقر (الجزء الثالث) ١٧

- مسألة مبدأ (قصة قصيرة) ... ٤٥
- قطرات العطش (قصة كاملة) ٥١
- المرأة مشكلة .. صنعها الرجل (دراسة) ٨٤

قصة العدد

البعد الخامس ٨٩

- حلول اختبر معلوماتك ١٨٩
- عزيزى القارئ ١٩٠

الثمن فى مصر ١٥٠ قرشاً
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم